الترقيم الدولي: ISSN2543-3857

المركز الجامعي بأفلو -

مقامات

للدراسات اللّسانية والنقدية والأدبية

مجلة دولية محكّمة، تصدر عن معهد الآداب واللّغات المركز

المجلد 05، العدد 02
ديسمبر 2021

المجلة مفهرسة في المواقع التالية:

دار المنظومة

DAR ALMANDUMAH

الرواد في قواعد المعلومات العربية

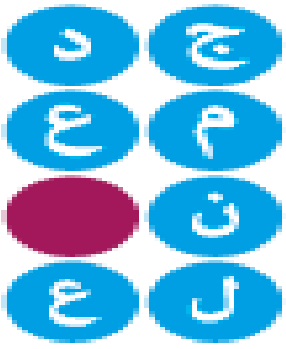

الجمعية الدولية
للمجلات العلمية
الناشرة
باللغة العربية

مجلة مقامات

مجلَّة دوريَّة دوليَّة علميَّة محكّمة
تصدر عن معهد الآداب واللغات
بالمركز الجامعي بآفلو
التَّرقيم الدَّولي: ISSN2543-3857

المدير الشرفي للمجلة: الدكتور عبد الكريم طهاري . مدير المركز الجامعي .
مدير المجلة: الأستاذ الدكتور: الوكّال زرارقة
رئيس التحريـــر: الدكتور: بن الدين بخولة
نائب رئيس التحرير: الدكتور: بوجمل حمزة

ترتيب وتنسيق:
د. سيد أحمد محمّد عبد اللّه

الهيئة العلمية الاستشارية للمجلّة:		
من الجزائر:		
المستشار العلمي	الجامعة	البلد
أ.د محمد حدوارة	جامعة عبد الرحمن بن خلدون تيارت	الجزائر
أ.د ناصر سطمبول	جامعة احمد بن بلة وهران 1	الجزائر
أ.د بوفاتح عبد العليم	جامعة عمار ثليجي الأغواط	الجزائر
أ. د إبراهيم شعيب	جامعة عمار ثليجي الأغواط	الجزائر
أ.د. مهوب جعيرن	جامعة عمار ثليجي الأغواط	الجزائر
أ .د سليمان عشراتي	المركز الجامعي بالبيض	الجزائر
أ.د عيسى بريهمات	جامعة عمار ثليجي الأغواط	الجزائر
أ.د بوداود وذناني	جامعة عمار ثليجي الأغواط	الجزائر
ا.د عميش عبد القادر	جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف	الجزائر
أ.د/ درقاوي مختار	جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف	الجزائر
أ.د عمر حدوارة	جامعة عبد الرحمن بن خلدون تيارت	الجزائر
ا.د. حبيب بوزوادة	جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر	الجزائر
أ.د/ حاج هني محمد	جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف	الجزائر

ا.د. جغدم الحاج	جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف	الجزائر
ا.د/ نور الدين دريم	جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف	الجزائر
د. سليم حمدان	جامعة حمة لخضر الوادي	الجزائر
د. عبد السلام زرارقة	جامعة أحمد زبانة غليزان	الجزائر
د. زهور شتوح	جامعة الحاج لخضر باتنة 1	الجزائر
د/ محمّد بوعلاوي	المركز الجامعي بأفلو	الجزائر
د . العيد علاوي	المركز الجامعي بالبيض	الجزائر
د. زين العابدين بن زياني	جامعة آكلي محند أولحاج البويرة	الجزائر
د/ جموعي السعدي	جامعة محمد شريف مساعدية سوق اهراس	الجزائر
د. سيد أحمد محمد عبد الله	جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف	الجزائر
د. عمامرة كمال	جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف	الجزائر
د/ أمين شعمي	المركز الجامعي أفلو	الجزائر
د. الجوهر مودر	جامعة مولود معمري تيزي وزو	الجزائر
د. سليمان بوراس	جامعة محمّد بوضياف المسيلة	الجزائر
د. عراب أحمد	جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف	الجزائر
د. بـــلعالم فضيلة	المركز الجامعي أفلو	الجزائر

د. فتيحة حداد	جامعة مولود معمري تيزي وزو	الجزائر
د. موفق عبد القادر	جامعة عبد الرحمن بن خلدون تيارت	الجزائر
د. شهان رضوان	جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف	الجزائر
د. عثماني بولرباح	جامعة عمار ثليجي الأغواط	الجزائر
د. فاضل نعمان	جامعة باجي المختار عنابة	الجزائر
د. عز الدين حفار	جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم	الجزائر
د. زينب لوت	المدرسة العليا للأساتذة – مستغانم-	الجزائر
د. لعويجي عمار	المركز الجامعي بريكة- باتنة	الجزائر
د. بوصوري ناصر	المركز الجامعي أفلو	الجزائر
د . سليمة محفوظي	جامعة محمد شريف مساعدية سوق اهراس	الجزائر
د. نصيرة شيادي	جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان	الجزائر
د. بوزيدي إسماعيل	المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة	الجزائر
د . طالبي عبد القادر	المركز الجامعي بالبيض	الجزائر
د . جلول دواجي عبد القادر	جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف	الجزائر
د. عائشة جمعي	جامعة يحي فارس المدية	الجزائر

د. عيسى خثير	المركز الجامعي بعين تموشنت	الجزائر
د. العربي دين	جامعة د/ مولاي الطاهر سعيدة	الجزائر
د . عيسى شاعة	جامعة آكلي محند أولحاج البويرة	الجزائر
د. باية غيبوب	جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف	الجزائر
د. بلقاسم بن قطاية	المدرسة العليا للأساتذة بالأغواط	الجزائر
د مختار حسيني	المركز الإسلامي للبحوث بالأغواط	الجزائر
د فتيحة بوتمر	جامعة آكلي محند أولحاج البويرة	الجزائر
د . بلقاسم بودنة	جامعة زيان عاشور الجلفة	الجزائر
د. بومدين فؤاد	المركز الجامعي أفلو	الجزائر
من الخـــارج		
ا.د رائد مصطفى عبد الرحيم	جامعة النجاح الوطنية – نابلس -	فلسطين
أ. د . محمّد أبو نبوت	جامعة القاهرة	مصر
د. عصام واصل	جامعة ذمار	اليمن
د. خضراء ارشود قاسم الجعافرة	جامعة مؤتة	الأردن

د. إحسان بن صادق بن محمد اللواتي	جامعة السلطان قابوس	عُمان
د. رضا الأبيض	المعهد العالي للعلوم الإنسانية مدنين	تونس
ا.د. فايز صبحي عبد السلام تركي	جامعة الملك فيصل	السعودية
أ. د مولاي علي سليماني	جامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال	المغرب
د. محمد شندول	المعهد العالي للغات جامعة قرطاج	تونس

قواعد وشروط النشر بالمجلة

تُرّحب مجلة "مقامات" للدراسات اللّسانية والأدبية والنّقدية بجميع مشاركات الأساتذة والباحثين قصد نشر بحوثهم ودراساتهم وفق الشروط المحددة على النحو الآتي:

الشروط العلمية:

1. تنشر المجلة جميع البحوث والدراسات الأكاديمية اللسانية والأدبية والنقدية باللغات: العربية والفرنسية والإنجليزية.
2. يشترط في البحث المقدم للمجلة أن يكون أصيلا وغير منشور أو مقدَّما للنشر في دورية أو مجلة أخرى.
3. التوثيق والحرص على الأمانة العلمية في النقول والاقتباسات.
4. تقبل الأعمال الفردية والثنائية، حيث تخضع المقالات قبل إجازتها . للتقييم والتحكيم من قبل خبراء مختصين، وقراراتهم غير قابلة للطعن أو الاعتراض.
5. الأعمال المقدّمة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
6. ما يرد من آراء وأحكام فيما ينشر في المجلة هي تعبير عن آراء أصحابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

الشروط التقنية:

1- حجم الصفحات وعددها: يترك 1.5 من جميع الجهات الأربع. وينبغي ألا تزيد صفحات البحث عن 20 صفحة (على ورق A4)، ولا تقل عن 10 صفحات.

2- نوع الخط وحجمه في العربية : sakkal majalla 16 و 14 sakkal majalla لقائمة المصادر والمراجع، وفي اللغتين الفرنسيَّة والإنجليزيَّة هو : Times New Roman (14) للمتن و للهوامش. ويكون الفصل بين الأسطر بـ : 01 سنتم. أمّا العناوين فيضاف إليها التثخين فقط (G)، وترقيمها، دون ترقيم التقديم وخاتمة المقال، وقائمة المصادر والمراجع، والهوامش..

3- تسجل المعلومات الكاملة (مؤسسة الانتماء، الولاية، البلد، الإيميل) للباحث باللغتين العربية والإنجليزية أسفل عنوان المقال.

4- الملخص يكون باللغة العربية بحجم sakkal majalla 14والإنجليزية، Times New Roman (14) مرفقا بالكلمات المفاتيح، التي لا تتجاوز الخمسة.

5- الهوامش تكون في نهاية البحث بخط sakkal majalla حجم 12 بطريقة آلية وأرقامها بين قوسين مثال:(1).

6- خاتمة: خاتمة البحث ملخص لما ورد في مضمون البحث، مع الإشارة إلى أبرز النتائج المتوصل اليها، وتقديم اقتراحات ذات الصلة بموضوع البحث.

7- يشترط في الأشكال والمخططات أن تكون بصيغة صورة وتتوسّط الصّفحة.

8- كما يشترط في المخططات والأشكال المركبة أن تكون مجمعة (Grouper)

9- تكتب الآيات القرآنية بخط غليظ ومشكّلة، وتوضع بين قوسين مزهّرين ﴿﴾،دون استعمال أي برنامج، وتعقبها أسماء

السور وأرقام الآيات في المتن بين معقوفين، مثل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة، 186].

10- تكتب الأبيات الشعرية وتشكّل، كما توضع الاقتباسات بين مزدوجين: "...." دون تثخينها.

11- تكتب الأسماء الأعجمية بالحرف اللاتيني زيادة على كتابتها بالحرف العربي.

12- يجب على المؤلف عند إعداد بحثه أن يلتزم بالمعايير المذكورة أعلاه والتي تعتبر عاملا مهما في القبول الأولي لبحثه.

للمراسلة والاتصال:

رئيس التحرير: د. بن الدين بخولة

البريد الإلكتروني:cua.makam@gmail.com

هاتف: 213699113862+

كلمة العدد

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين يطل علينا العدد العاشر من مجلة " مقامات" ونحن نودع عاما(2021م) ونستقبل آخر(2022م) نهنئ فيه بالمناسبة جميع قرائنا الأعزاء ونسأل الله أن يعيد علينا العام الجديد بالخير والبركة في معاشنا وعملنا وعلمنا.

يحمل العدد العاشر من مجلة " مقامات" مادة بحثية علمية متنوعة بين النقد والأدب واللغة وتنوعا جغرافيا عربيا من مؤلفين أكاديمين من جامعات عربية (سوريا - اليمن - السعودية - العراق) إلى جانب مؤلفين أكاديميين من الجامعات الجزائرية ففي مجال الدراسات الأدبية النقدية تضمن العدد حضورا متميزا للقراءة الروائية العربية ، لما تمثله الرواية من حضور في الدراسات النقدية المعاصرة ، ومن استقطاب لتجلية ما تحمله من دلالات عميقة عاكسة للواقع الذاتي والجماعي بجميع تناقضاته في حياة الإنسان العربي ، ومدى التطور الفني الذي عرفه هذا الجنس الأدبي في مواكبته للحركة الفنية والأدبية في العالم . وليس ببعيد عن الرواية يطالعنا العدد العاشر ببحثين عن الفن السينمائي الأول حول الإشكاليات اللغوية والتقنية في ترجمة الأفلام إلى العربية ، فكما نعلم أننا نعيش عصر التنافس والتسابق لإحراز أكبر مساحة في هذا العالم للهيمنة النفسية ، والتوسع الثقافي والفكري ، وتكون اللغة هي الوسيلة الموصلة لذلك وصحة الترجمة تتوقف حولها نسبة تحقيق الأهداف المسطرة لذلك . أما البحث الثاني فيتحدث عن دور سينما الحرب في حفظ الذاكرة الجماعية ومدى مساهمتها في التأريخ لماضي الأفراد والجماعات كوسيلة تأريخية مرئية أرشيفية.كما نسجل حضور الشعر في العدد العاشر في بحثين الأول حول واقع الدرس الجامعي لأغراض الشعر العربي القديم في الدرس الأكاديمي في جامعة البصرة ، والثاني تحليلا نقديا فنيا يتناول دراسة في الاتساق حول التماسك النصي في قصيدة حزن صعلوك متأخر لخليف الغالب.

ومن الدراسات الأدبية النقدية في هذا العدد حديث عن ظاهرة التناص في مقالات محمد البشير الإبراهيمي لما يحمله النتاج الأدبي لهذا الأديب من ظواهر موضوعاتية وفنية استقطبت الدارسين والنقاد للكشف عنها وبيان جمالها وفنياتها.

وفي مجال الدراسات اللغوية تضمن العدد العاشر عددا من الموضوعات دارت حول التداخل المصطلحي في تحديد مفهوم المحادثة ، وإشكالية الحضور والتغييب المصطلحي في الدرس اللساني والتداولي ، والتنغيم الصوتي وأثره في رفع الكفاية القرائية عند الطلاب ، واللزوم الدلالي لكلمة الشفاعة في القرآن الكريم، وكلها موضوعات تصب في جانب الدرس اللساني من جهة ودوره في تعليمية اللغة من جهة ثانية .

وتبقى مجلة " مقامات" وفية لقرائها في تزويدهم بهذا التنوع المعرفي في حدود تخصصها ، ووفية لخطها ، ووفية كذلك لجميع الباحثين في فتح أبوابها لهم. وعامكم سعيد وكل عام وأنتم بألف خير.

مـــدير المجلـــة :
الأستاذ الدكتور الوكّال زرارقة

محتويات العدد: 02المجلد: 05

الرقم	عنوان المقال	المؤلف (ان)	الجهة	الصفحة
01	وصْمُ الذاكرة في رواية العشق المقدنس لعزالدين جلاوجي	فيدوح عبد القادر	جامعة قطر	46-13
02	صور النضال السياسي والاجتماعي واتجاهاته في الرواية السورية- الروائي السوري حنا مينه نموذجاً	وجدان محمداه	جامعة الشام الخاصة	57-47
03	سينما الحرب والذاكرة الجماعية	عبد القادر رحيم سليم بتقة	جامعة بسكرة	73-58
04	حدود المكان المعرفية – قراءة في المفاهيم-	طيب حمايد	جامعة بلعباس	92-74
05	تمظهرات صراع الأنا والآخر في نظريَّة ما بَعدَ الكُولونياليَّة.	روضة علي الحمّادي	جامعة قطر	93-112
06	تمثّلات المثقف في الرواية الجزائرية المعاصرة - قراءة في رواية صمت الفراغ لإبراهيم سعدي-	أحمد ملياني	جامعة الشلف	113-128
07	الهوية الثقافية العربية في ظل لغة الإعلام الجديد(بين سؤال الانتماء وهاجس الاغتراب)	عبد القادر طالب	جامعة بومرداس	129-151
08	النصّ والخطاب: إشكالية الحضور والتّغييب المصطلحي في الدّرس اللّساني والتّداولي	ذهبية حمو الحاج	جامعة تيزي وزو	152-168
09	المدونة اللغوية: تطبيقات حاسوبية من خلال برنامج "انتكونك" (AntConc)	وفاء الزهيلي	جامعة قرطاج تونس	169-197
10	اللسانيات الوظيفية- الأسس والمرتكزات-	فوزية دندوقة نوال بقطي	جامعة بسكرة	198-211
11	اللزوم الدلالي لكلمة الشفاعة في القرآن الكريم	تنوير بنت أحمد علي هندي	جامعة جازان السعودية	212-243
12	الفتوى الشنقيطية وتباين المنهج.. دراسة في المصادر والسمات خلال القرن 13هـ	إزيدبيه محمدنَ الامام		244-270
13	التنغيم الصوتي وأثره في رفع الكفاية القرائية عند الطلاب	عائشة يوسف عبد الحميد التركاوي	جامعة درنة ليبيا	271-288
14	التّداخل المصطلحيّ في تحديد مفهوم المحادثة	بوتمر فتيحة سعداوي سهام	جامعة البويرة	289-303
15	الإشكاليات اللغوية والتقنية في سترجة	بشير زندال	جامعة ذمار اليمن	304-

	الأفلام إلى العربية			320
16	أشْكَالُ حُضُورِ المَدِينَة في روايَة (مَسْرَى الغَرَانِيقِ في مُدنِ العَقِيقِ) لـ: أُمَيمَة الخميس	حمدة بنت خلف العنزي	جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض	321- 349
17	البخل بين "البخلاء" للجاحظ و"البخيل" لموليير	إدريس عتيه	الجامعة القاسمية - الشارقة	350- 369
18	التّماسك النَّصّي في قصيدة حزن صعلوكٍ متأخر لـ"خيلف الغالب" دراسة في الاتّساق	عائشة بنت صالح الشمري	جامعة حائل السعودية	370- 400
19	الانسجام ، المصطلح و المفهوم - دراسة معجمية لسانية	عبد العزيز الناصر		401- 426
20	التناص وتجلياته في مقال الابراهيمي	قطاف جلول العابدي خضرة	جامعة وهران	427- 445
21	Difficulties that Yemeni Students of English Encounter in Translating Scientific Texts from English into Arabic	Abou ahmed ali mounassar	THAMAR UNIVERSITY YEMEN	446- 472
22	De la nécessité d’une contextualisation de la didactique du français – Quelques interrogations épistémologiques-	BAKA Jaouad	Université Mohamed V, Rabat	473- 489

مجلة مقامات
EISSN 2253-0363: / ISSN2543-3857
ISSN :
المجلد 5/ العــدد: 2/2021 (ص 13-46)

وصْمُ الذاكرة
في رواية العشق المقدنس لعزالدين جلاوجي

Stigmatization of memory
In the novel the sacred love of Ezzedine Glaouji

فيدوح عبد القادر
Fidouh Abdelkader
afidouh@hotmail.com
جامعة قطر
Qatar – University

ملخص:

تسرد الرواية فترة حكم الدولة الرستمية - في المغرب الأوسط / الجزائر - التي شاعت فيها الفتن، وتفشت فيها الخلافات، كما تشتغل الرواية على الزمن الماضي الذي كرس نمط وجود كيانات فكرية، ومذهبية، وسياسية مترامية الميول في اتجاه النعرات التعصبية والطائفية، تحاول من خلالها الشخصيتان الرئيسيتان [السارد مجهول التسمية، وحبيبته هبة] إثبات وجودهما من صدع صيرورة الزمن المفروض عليهما؛ سعيًا إلى اجتياز هذه الحدود العسِفة التي استولت على مصيرهما، واستحكمت في أمور حياتهما المأمولة؛ بفعل صراع التضارب في المصالح، والتناقضات بين هذه المذاهب؛ مما حال دون تنامي مسيرتهما، فأُجبِرا على نزال الماضي، الذي منعهما من العيش في كنف الحاضر؛ بفعل الإكراهات والتقلبات السياسية الجائرة؛ الأمر الذي عطَّل من إمكانية الإسهام في إنفاذ الفعل الحضاري الواعد، كما أحبط شروط ديمومة الوعي الثقافي، وأفسد الاستقرار السياسي، وأعاق سعي المسار الاجتماعي الطبيعي. وقد تم التركيز في الرواية على الزمن الماضي؛ من دون الحديث عن الزمن الحاضر إلا في آخر الرواية عندما عرض علينا السارد حالة جمعه مع حبيبته أمتعتهما، واتفقا على أن يقصدا تيهرت (عاصمة الدولة الرستمية) حين انحدرا من فوق الربوة، وهنا عاد البطلان [السارد وهبة] إلى الحاضر، وأدبرا عن صفحة الماضي السحيق، على الرغم من اعتراف [هبة] بصعوبة الإفلات من الأقدار بحسب ما قالته لحبيبها "لن نستطيع الفرار من أقدارنا للأسف الشديد، جبال الغباء التي تراكمت عبر القرون لا يمكن اجتيازها بسهولة، لأننا جميعا مكبلون داخلها."

كلمات مفتاحية: وصم، ذاكرة، روايةى ، العشق، المقدنس، عز الدين جلاوجي، الدولة الرستمية، تيهرت)

Abstract:

The novel narrates the period of the rule of the Rustamiyya state - in central The Arab Maghreb - in which strife spread and differences rampant, and the novel also works on the pattern of the existence of intellectual, sectarian, and political entities with a wide inclination towards strife, sectarianism and sectarianism, trying from Gitan the main person [the narrator is anonymous , And his sweetheart Hiba] prove their existence from the crack of the time imposed on them; In order to cross these arbitrary borders that have taken over their destiny, the boundaries have decided the matters of their aspirations; By the conflict of interests and the contradictions between these sects; This prevented their march from growing, so they were forced into the bout of the past, which prevented them from living in the confines of the present. By unjust political coercions and volatility; This impeded the possibility of contributing to the implementation of the promising civilized act, frustrated the conditions for the sustainability of cultural awareness, corrupted political stability, and hindered the pursuit of the normal social path. The focus is on the past tense. Without talking about the present time except at the end of the novel, when the narrator presented to us the case of his collection with his beloved of their belongings, and they agreed to go to Tehrt (the capital of the Rustamid state) when they descended from the hill, and here the two protagonists returned (the narrator and Heba) to the present, and they turned from the page of the past. The abysmal, despite [Heba] admitting the difficulty of escaping from fate, according to what she told her lover, “We will not be able to escape from our destinies. Unfortunately, the mountains of stupidity that have accumulated over the centuries cannot be crossed easily, because we are all shackled within them.”

Keywords :

novel,, memory, my novel, love, Al-Maqdis, Ezzedine Jelawyi, Al-Rostamiya State, Tehart

مآب المرويات الكبرى/ التباس التاريخ

تندرج رواية [العشق المقدنس] لعزالدين جلاوجي ضمن نسق سرد التخييل التاريخي، بوصفها نصا يجمع بين التوثيق والتخييل لمرحلة عصيبة في تاريخ الجزائر القديم، وتحديدًا في حقبة الدولة الرستمية (160هـ - 296هـ / 776 م – 909 م) بما كان يسمى بالمغرب الوسيط، واستمرت ما يقرب من 136 سنة؛ حيث انبثقت عن هذه المرحلة مذاهب متنوعة الاتجاهات، فرضتها صراعات المذاهب، ورسَّختها الصراعات والخلافات الحادة في عهد الحكم العباسي، الذي وضع مبدأ الالتزام الحزبي كشرط من شروط الولاء، وعلى الجميع أن يعتقد بفكرهم، بعد أن اعتمدوا مبدأ نفي الآخر؛ فاستشرى بذلك الصراع السياسي، واحتدت الخلافات بين بقايا أنصار الأمويين والمعارضين للحكم في حينه، وتقاتلت القبائل فيما بينها، وتكتلت الأحزاب؛ بما ليس له علاقة بينها وبين تنامي الأحداث وتطور المسار الثقافي والاجتماعي، ولمحاولة فك هذا النزاع رفع العباسيون لواء أنهم **"ظِل الله في الأرض"**، وأنهم أجدر بالحكم بتفويض إلهي، فأضفوا الشرعية بصبغة القداسة عبر الفقهاء والشعراء

والموالين، تكريسا لمبدأ الأحقية بالخلافة لرؤسائهم، بوصفهم شرعيين من الناحية الزمانية والروحية، فأصبح الزمن عندهم معيارًا لا ينبغي التفريط فيه حتى يبقوا أطول مدة.

وبنجاح الحكام العباسيين واستيلائهم على السلطة تم لجوء بعض التيارات السياسية والفكرية المناوئة لهم إلى مناطق أخرى من الدول التي كانت بعيدة عن أجواء الصراعات والفتن، فاستغلت الذهن الخالص، واستتباب الأمن في هذه الدول، وبدأ دورها فاعلا ومؤثرا في البيئة الثقافية والاجتماعية والفكرية، فأقروا ما كان متوقعا منهم باحتواء الأهالي، وبذلك يكون حلم عبد الرحمن بن رستم قد تحقق بتأسيس نواة الدولة الرستمية في مدينة تيهرت، ما يسمى اليوم بمدينة تيارت في الجزائر، تم على إثرها مبايعته إماما لها ولمذهبها الإباضي، ولم يجد أنصار عبد الرحمن بن رستم أية مقاومة من قبل السكان الأصليين الذين وجدوا فيهم المنقذ لمعاناتهم من سوء معاملة الأمويين لهم في خضم إرهاقهم بالمغارم والجبايات وفرض الجزية.

وكان لتأسيس الدولة الرستمية الدور الفاعل في رسم القطيعة مع كل ما يمت بصلة إلى زمن العباسيين، من دون أن يفقد أنصار عبد الرحمن بن رستم اتجاههم المذهبي والفكري؛ ومع هذا التوجه حافظوا على ممارسة مرجعيتهم التاريخية التي حصروها في تكريس الوجود الذي لا يتحقق إلا فيما طبعه الزمان من سيرورة، وبما ينطلي عليه من خصوصية، تميزهم، وترسخ معاييرهم المذهبية، والسياسية، والفكرية، اللازمة، التي تقوم على مبدأ التغذية الراجعة في تنمية مخزون إرثهم في ظاهرية الماضي، بوصفه ثقافة راجعة ترسم ملامح المستقبل؛ وأن لا صوت يعلو على المرجعية التاريخية، وهو ما كشفت عنه سرديات رواية [العشق المقدنس] فيما سلطت الضوء عليه الشخصيتان الرئيسيتان [السارد، وهبة]، اللذان ناضلا من أجل تخطي الزمان الماضي بمآسيه في وجودهما، ولكن من دون جدوى؛ فيما يشير إلى أن الزمن الماضي مازال يحتوينا، ويثير الخلاف، ويوقد نار الفتنة بكل ما يستأثره فينا بخصوصياته، ومثالبه إلى يومنا هذا؛ ومن هذا المنظور جاءت الرواية لتنتقد مآسي الماضي بحمولاته الثقيلة التي مرت بها الحضارة العربية الإسلامية، بخاصة في منطقة المغرب الوسيط، حتى أصبح هذا الماضي يشكل المعيار الوحيد لقياس المد بين الماضي والمستقبل، وتغيُّر الحياة بأشكالها المتنوعة والمختلفة على وفق إرث الضمير الجمعي، مما جعل محور الرواية يدور حول واقع فرضه الإرث الثقافي من دون مراعاة الاهتمام بالحاضر، إلا فيما له علاقة بالرؤية الوجودية المرتبطة بالتاريخ، وأن الحاضر مرهون بالماضي، الذي يقتحم راهن الواقع، ويتبع اللاحق من المستقبل، فيظل ماثلا أمام الأجيال، وهو ما ورثته فينا فئة من الأعراب الذين ذم ابن خلدون سلوكهم الحضاري من حيث رسمهم صورة الماضي واقعا مثالا لهم، وكون الماضي المترسب عند هؤلاء الأعراب حقيقة صرفة، لا وجود له في الواقع العياني، فهذا معناه من الصعوبة بمكان خرق قاعدة الموروث، وأن هؤلاء الأعراب ليست لديهم القابلية للتطور، لذلك كانوا دوما متحصنين في أماكن خاصة ومميزة؛ لأن في ذلك مدعاة لتقوية العصبية، متعززين بأطوار القوة والتوحد،

وغاية ذلك في نظرهم تحقيق فعل القوامة المتأصلة فيهم، وفي هذا إبطال للعقل الاعتباري الذي من شأنه أن يغير من طبيعة الواقع من الذهنية إلى العينية العملية، من حيث إن الواقع ظاهر بعينه لا بنور الآخر.

وإذا كان سرد [العشق المقدنس] يسير على النسق نفسه الذي انتهجه ابن خلدون حين انتقد المجتمع القبلي بما فيه من عصبية مذهبية؛ فلأن هذا المجتمع في نظرهما كان قائما على مدركات السمع في التلقي عبر آلية النقل، فحاول تعويض ذلك بإمكان زرع فكرة العمل بالإنتاج البشري "الجماعي"، وبحسب ما توجبه البصيرة، والتطلع إلى المستقبل؛ وفي ذلك ما يظهر أن ابن خلدون منحاز إلى بناء التاريخ من وجهة نظر العلوم العقلية العملية، وليس من وجهة نظر العلوم النقلية السمعية، ومن ثم كانت اعتباراته العقلية كاشفة عن الحقائق المودعة في المجتمع؛ اعتقادًا منه أن ذلك يتصل بقوة العقل المنتج، المتنامي في الاتجاه الناهض، ولعل القصد من اللجوء إلى مثل هذا الطرح الاجتماعي المبكر، الذي أطلق عليه علي الوردي "بالطفرة" هو كون ابن خلدون أراد أن يخلص المجتمع القبلي من تبعية الموروث الاجتماعي المتكدِّر من بقايا الماضي، وهو الموقف نفسه الذي تتبناه رواية [العشق المقدنس]؛ بالنظر إلى ما آل إليه الوضع؛ وبجرَّ الذاكرة من تلفٍ إلى تلفٍ، وحلحل الوعي إلى التبعية المتوارثة، وأدخل الواقع في تشاحن وتنازع، لأن الواقع بحسب ما وصفه سرد الرواية، لم يكن موصوفا بحسب وجوده العياني، حتى يكون مطابقا لحمل صفة إعمال النظر، بل كان موصوفا في الذهن مما ترتب عليه آثار مختصة بتوابع الصفات المرجعية المتدرجة عبر الذهن؛ أي الصورة الواقعة في المرآة، بوصفها النموذج لتجلي مثالها، وهي الصورة العقلية المجردة المُحاكِية، وبذلك يكون وجود هذه الصورة في نفسها بناء على تجردها في ذاتها من الواقع المفترض؛ الأمر الذي استعصى عليهم رسم صورة لواقع عملي استشرافي، غير الواقع المألوف، وهو ما نبّه إليه ابن خلدون في قوله: **"ولا تنكرنّ ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيئا من أمثاله فتضيق حوصلتك عند ملتقط الممكنات. فكثير من الخواص إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار عن الأمم السالفة بادَرَ بالإنكار، وليس ذلك من الصواب، فإن أحوال الوجود والعمران متفاوتة، ومن أدرك منها رتبة سفلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها."**[1]

وبالنظر إلى ذلك، فإن رواية [العشق المقدنس] أرادت أن تفك العقل عن ماضيه بالمعايشة بالفعل، والانضمام إلى الواقع وتصوره، ومن ثم الانشغال به، من خلال تشاكل الخارجي والذهني معا؛ وهي النظرة التي أشار إليها ابن خلدون؛ إذ ليس هناك موطن للواقع إلا بحسب تصوره العيني. ومن هنا حق للشخصيتين الرئيسيتين [السارد وهبة] أن يُسْلِبَا الواقع الماهوي، الممسرح، اللصيق بالإرث الاجتماعي والثقافي، ويزرعا فكرة الواقع العياني في معناه، وفي تفاعلاته المولدة لنمط جديد، يستجيب لمعطيات العصر بما تقتضيه البنية التركيبية للذهنية المتجددة، حول كل ما هو اجتماعي وسياسي، بالانتقال من طبيعة المعقول المعلوم إلى طبيعة المعقول المعمول؛ أي التحول بالمجتمع من النتائج النظرية إلى المواقف العملية، وهي النظرة التي عمق فيها ابن خلدون رؤيته حين سعى إلى إصلاح هذه الأخيرة وصولا إلى إصلاح الأولى: وإصلاحهما جمعا وجهي المضمون الفكري للجدليتين: الوجه النظري الطبيعي ونتائجه العملية، والوجه العملي الإنساني ونتائجه النظرية، لذلك فلا

عجب إذا رأينا أن الإصلاح الخلدوني لعلم التاريخ يستند إلى إصلاح النظرية المحددة لطبيعة التاريخ، كون نظرية العمل هي الأساس في نظرية علمه، من هنا جاء نقده العلماء [الفلاسفة والمتصوفة والمتكلمين] كونهم لم يدركوا طبيعة التاريخي والسياسي التي حصروها في العملي بالمعنى التقليدي الذي يقابل بين النظري والعملي مقابلة الضروري للإرادي."[2]

وفي هذا فرق بين العقل النظري التابع، والعقل العملي المنجز، من حيث إن العقل النظري لا يرى إلا ظاهر الأشياء، بينما تكون النظرة الثاقبة في العقل العملي متجاوزة التبعية إلى ما يتأسس على الإقدام والجسارة، وبمثل هذه النظرة استطاعت رواية [العشق المقدنس] أن تستخلص عالم البنية الواقعية في إرث الدولة الرستمية على النحو الذي حاول فيه السرد أن يكتنه الظواهر الاجتماعية، ويدرك أبعادها من خلال التاريخ، الذي يستند إلى التحليل الموضوعي، بعيدا عن السير على منوال السلف من دون تبصر، كما في هذا الموقف بين السارد وحبيبته هبة؛ حين سرد عليها ما رآه في المنام: "ورحت أعيد عليها الكابوس، وأنا ألعن التاريخ الذي لم يركم على عقولنا إلا المآسي. هل يمكن أن يبقى فيها مكان للحلم، وكل أفراحنا وأقراحنا، وكل آمالنا وخيباتنا دم؟ هل يمكن أن تبتسم في أعماقنا الزهور، وقد تغشّاها موج الصقيع القاتل؟ ما هذه العواصف الآتية من أعماق التاريخ، المحملة غبارا وعفونة، المتراكمة على جفون العقل؟ وكدت أصرخ، وأنا أحس بالاختناق، كدت أشتُم حراس التاريخ الملاعين، الذين لم يفعلوا شيئا سوى أنهم أوغلوا في استغبائنا".[3]

انتهاك الذاكرة / جَلَبة الحاكمية

ردا على الحكام العباسيين الذين رفعوا شعار أنهم "ظِل الله في الأرض"، كايل الخوارج ومنهم الإباضيون هذا القصد بما يناقضه برفع شعار "الحاكمية"، مكفرين بذلك كل من يخرج عن طاعة الله، وألبسوها في صوغ سياق المشروع الفكري السياسي، وبما يتوافق مع غلوّهم، الذي رسخوه في ذهنية أهالي المغرب الوسيط، وإرغام كل من يقيم في الوجود على الخضوع لأنظمة الحاكمية وأحكامها. وقد كان زعماء الدولة الرستمية أول من صك الفكر الإباضي وأذاعوه، واتخذوا من الحاكمية محورًا حاسما، وهدفا رئيسا لمسيرتهم العقدية والسياسية، على خلاف بعض الفرق الأخرى التي كانت تستند إلى تشريعات مخففة في نظمهم العقدية والسياسة، وعلى الرغم من ذلك فقد اتبعوا سياسة توثيق العلاقات الثقافية، وبذلك تصنَّفت المذاهب الدينية والسياسية في عهد الدولة الرستمية، فتنوعت الاتجاهات الفكرية والدينية، والعلوم العقلية والنقلية، فلم تكن أمام القادمين إلى مدينة تيهرت، عاصمة الرستميين، صعوبة تذكر في تبليغ هذه التوجهات، على نحو ما عبرت عنه الرواية في هذا النص عندما وفد على مقر السارد وهبة ثلاثة فرسان، في صورة الملازمين للأسفار، فأقدم أحدهم بعد أن سلم على السارد: قصدنا هذه الأشجار للراحة، فهل تأذن لنا؟ وأسرعت إليهم بطعام وماء...كانت لهجتهم المشرقية واضحة، ظللت أتساءل، لمَ يقطع هؤلاء خلاف الأميال؟ هل هم مغامرون؟ أم هي مجرد سياحة لا غير، كأنما أحس كبيرهم بحيرتي فقال:

جئنا لننقذ الناس من انحرافات الفرق الضالة، إلى جوهر الإسلام الصحيح وحقيقته.[4] أي على حد ما قاله المفكر السوري رشيد رضا: الإسلام فروة موضوعة على قفاها، اقلبوها وكل شيء يسير على ما يرام[5]

في هذا النص تساؤلات – ضمنية – تشير إلى تفشي الانقسامات والخلافات الحادة بين المذاهب الدينية على أسس فكرية طائفية في فهمها لأصول التشريع من منظور إيديولوجي سياسي، سواء عبر واجب الولاء للحاكم، أو ما جاء ضمن شعار الحاكمية في مقولة "لا حكم إلا لله"، فما الذي يعنيه تساؤل لسان الضمير الجمعي في مقام السارد أمام تعاقب وفود علماء المشرق من شتى المذاهب إلى عاصمة الدولة الرستمية؟ وما هي دواعي هذه الوفادة رغم بعد المسافة وما يعتريها من رحلة شاقة؟ وما الذي يميز أفكارهم من علماء المغرب الوسيط ورجالاتها الدينية؟ وهل تمثل الدولة الرستمية في توجهاتها العقدية والفكرية مصدرا للتمرد بدعوى الانفصال عن الاتجاهات الفكرية للمذاهب الدينية المشرقية؟ هذا غيض من فيض من التساؤلات التي كانت تملأ أجواء السارد مع حبيبته [هبة] في محتوى ما تضمنته رواية [العشق المقدنس] على الرغم من أنهما يدركان أن كل الملل والنحل من هذه المذاهب – وغيرها - تستمد شرعيتها من وحدتي اللغة والدين، بوصفهما لحمة واحدة، تقوم على تعزيز الولاء الذي تقوم عليه لحمة النسب إلى الدين والقومية على أسس راسخة، تضمن وحدتي اللغة والرابطة الدينية التي من شأنها أن تعزز الوعي الروحي، وتلحم المجتمع بعضه ببعض، وتؤسس الدولة القويمة.

تشخص الرواية مأساة الحضارة العربية الإسلامية، بتركيزها على المدة التي حكمت فيها الدولة الرستمية في المغرب الوسيط في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري **(160هـ - 296هـ)** وهي الفترة التي سادت فيها الخلافات الحادة بين المذاهب الدينية على وجه التحديد في كل البلاد العربية آنذاك، وتناءت فيها إمكانية التعايش السلمي مع الآخر المخالف فكريا، ومذهبيا، وإيديولوجيا، بعد أن كان موضوع الانتماء يشكل عقبة كأداء في حياة المجتمعات العربية، وهي الصورة التي لم تتغير إلى يومنا هذا من دون أدني مسوغ؛ لتفاقم هذه الخلافات، التي ما زالت تسهم في تدمير الهوية إلى جانب حصد الأرواح، ونبذ الفكر المباين، واستبعاد الموقف المعارض وإلغائه؛ من خلال اتهام طرف على حساب طرف آخر، كل يأخذ بوجهة نظره بين الطاعة للحاكم، والإذعان له، أو الاعتصام بحبل الله، وألا حكم إلا لله، وبين هذا وذاك كانت الوفود تتوالى على عاصمة تيهرت باختلاف مشاربها بحسب ما جاء على لسان السارد قوله: "ولم تتوقف علينا الوفود منذ ذلك اليوم في زوايا النظر إلى الحقيقة، وتتفق جميعا في اعتقاد أصحابها أنهم من الفرقة الناجية، وظللنا نستمع للجميع في حيرة كبيرة، كلما بنت جماعة منهم فكرة هدمتها جماعة أخرى، وخاض الناس جميعا في سوق الجدال، لا همَّ لهم إلا أن يخوضوا في ذلك كمن يخوض في الوحل[6]. وبذلك اتخذ المنحى السياسي فكرًا متطرفًا من جميع الحشود الطائفية، وأخذ الجدل مجرى العتوّ، وكلها تنتهي إلى تبني رؤية استبدادية، وليس لهذه الطوائف من العذر في شيء بالتماسهم المغالاة في الفكر، والمبالغة في المواقف، بخاصة الاستناد إلى تعاليم الأولين، والتمكن من آرائهم الجدلية في صخب، والاقتداء بالسلف كيفما كانت تعاليمه الثقافية أو المذهبية، متجاوزين التعاليم الدينية السمحاء، فما كان من هذا الاختلاف إلا أن أوعد الاستقرار الذهني

شرًّا؛ لمن يخالف هذه الطائفة أو تلك، كل ذلك كان بفعل انتهاك التعاليم الروحية، والتعدي عليها بالاستبداد على إثر " تضافر آراء أكثر العلماء الناظرين في التاريخ الطبيعي للأديان على أن الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني.. وإن لم يكن هناك توليد فهما أخوان، أبوهما التغلب، وأمهما الرياسة، أو هما صنوان قويان، بينهما رابطة الحاجة على التعاون لتذليل الإنسان، والمشاكلة بينهما أنهما حاكمان، أحدهما في مملكة الأجسام، والآخر في عالم القلوب.[7]

لقد تورطت المذاهب الدينية ذات الطابع الإيديولوجي، عبر توالي العصور في تبني إخماد صوت الآخر، والدعوة إلى إقصائه بلغة الخطاب، وسلاح التخاطب؛ من دون مراعاة قيم التبصر، والتأمل، التي دعا إليها الدين الحنيف في التدبر والتفكر؛ بغرض الاستنباط، وتصريف القلب بالنظر في مقاصد المعنى الحقيقي للشريعة السمحاء، وفهمها؛ لكي تستقيم حياتنا على الوجه المطلوب، وربما كان ذلك دافعا لتوضيح الفكرة في سرد [العشق المقدنس] بما كان يدور في خاطر السارد وهو يتوجس من مخاطبة هبة فيما يخطر بقله: "كنت أعيد إلى ذاكرتي ما قرأته عن علم الكلام، وعن رجاله الكبار، فهل يعيد التاريخ نفسه؟ وهل ننتظر بعثة عباقرة جدد في حجم واصل بن عطاء والعلاف والنظام والجاحظ؟ هل يلزم كل هذا الغثاء، وكل هذا الرماد، وكل هذه الرداءة، لننتظر بعثة أنبياء جدد، يطهرون القلوب بالحب، وينيرون العقول بالمعرفة، ويرتقون بالإنسان إلى مصافه العليا؟ وهل يمكن أن أقنع هبة بكل هذا الحلم الجميل؟ حتما ستصرخ في قائلة -أفق من نومك."[8]

تتميز رواية [العشق المقدنس] بكونها حشدًا للعديد من الفرق الدينية، والمذاهب الفكرية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية من خلال طرح وجهات نظرها العقدية والفكرية، نتيجة مُخلِّفات وتداعيات طائفية، كانت تستمد مقوماتها من براثن جهل بعض المزاعم التي استغلت الدين للحصول على شرعيتها، سعيا إلى خلق تضافر الجهد مع سيرورة الحياة المفروضة على المجتمع؛ حتى تكون متجانسة مع إرث السلف، وكأن الحياة في نظر هذه الطوائف هي امتداد لصيغة الثقافة الراجعة في جميع مجالات هذه الحياة، التي صاحبت مجريات حالاتهم القولية، والفعلية، والتقريرية، تحاكي تحولاتهم حيثما حلوا، ويكون الحذو بالمطابقة كيفما اتفق عليه الأمر والنهي، من دون أدنى جَهد للتحرر من بعض الظنون والخلافات الناشئة من غير دليل، والافتراءات الوخيمة، وإدخال الوعي الجمعي في الإحباطات والإخفاقات، مقابل التطلع إلى الأمجد والأهم، ومن دون مراعاة إيجاد أسس مواكبة للعصر لبناء الوعي المستجد؛ لأنه في نظرهم يتعارض مع ثقافة الوعي المرجعي للتاريخ، على الرغم مما كان يعيشه هذا الماضي من فوضى وصراعات سادرة، وتنازعات هوجاء، وسجالات عنيفة، مصدرها [الطائفية السياسية]، نتيجة مخلفات الغُلواء والبهتان، وتداعيات الجَلَبة، المصاحبة بـالمحاججة والجدل العقيم، واللغط المتبدد، مما أدى إلى رفع منسوب العنف، وكثرة "الاغتيالات، وصار الناس يستيقظون صباحا على منشورات هنا وهناك، تدعو الناس إلى الانتفاضة على حكم أبي عبد الله علي البكّاء، ومحاسبة الخونة وعلى

رأسهم مفتي الإمارة، واختلطت الأمور، فلم يعد الصراع بين الطائفتين السلفيتين فحسب، بل ظهرت طوائف مختلفة ونحل متعددة، أشهرها على الإطلاق فرق الخوارج، التي بدأت أول أمرها سرا، ثم استفحل خطرها حين صارت بعض أحياء العاصمة من أتباعها، وصار يخطب لها في بعض مساجدها، وفرقة القرآنيين التي يشاع أن أتباعها هم من الطبقة المتعلمة، وهي فرقة لا تؤمن إلا بالقرآن، رافضة ما يضاف إليه من سنة، ومن أعمال السلف، بل وظهرت أيضا جماعات شيعية أغلبها على مذهب الإمامية، وجماعات على مذهب المعتزلة، بل وعلمانيون أيضا، يتستر معظمهم خوف عنف السلطة"[9] والحال هذه، أن الرواية تسرد سطو هذه الطوائف على ذهنيات الأهالي من داخل المنظومة السياسية الدينية، واستنزاف الجهود الفكرية بـ [التطييف السياسي] عبر شرعية الحاكمية؛ بمسوغاتها العقدية، وتبعية الإرث الثقافي، والكاريزما التخاطبية التي تسحر المتلقي بردع أنظاره، وثنيها بالجاذبية الحيوية، التي تلعب على المشاعر فيما له علاقة بارتهان السلطة بالدين، وترسيخ شرعية الحاكم بالذرائع والموجبات الدينية.

لقد ظفرت رواية [العشق المقدنس] بمرادها في إبلاغ الجيل الواعد بارتياب الكثير من مزاعم المذاهب الدينية، والاتجاهات الفكرية الطائفية، التي كان لها التأثير المباشر على سيرورة الحياة اليومية، ولعل في هذا الصوغ الوصفي تنصلا من الشخصيتين الرئيسيتين [السارد، وهبة] وهما يبغضان مواقف هذه التيارات، وينكثان عهد ما ورد منها من آراء وتصرفات مجحفة، سواء من خلال ربط الدين بالإكراه، أو من الدعوة إلى الانتماء السياسي بالإرغام، كونهما - معًا - ارتبطا بمساعي القوة والتسلط، وهي النظرة التي تبنتها الكثير من المزاعم المذهبية، والاتجاهات الفكرية المضللة؛ بما في ذلك النظريات الفلسفية الحديثة، كما هو الشأن بالنسبة إلى فلسفة كلٍّ من هيجل Friedrich Hegel، ونيتشه Friedrich Nietzsche، وماكس فيبر Max Weber، وغيرهم كثير من الذين يعدون من دعاة استخدام القوة والعنف داخل مجال السياسة، بحسب ما يتطابق مع ربط السياسة ببعض مزاعم المذاهب الدينية المغلوطة، التي مورست على مجموع السلوكيات والسيرورات والتفاعلات الإنسانية، وهي تعرب عن سيطرة الإنسان على الإنسان، وتعتقد أن الحكم هو الإطار المرجعي لهذه السيطرة التي يجب أن تحتكر قوة الإكراه[10]

ولعل في هذه المعادلة الصعبة بين السيطرة والمرجعية الثقافية ما يشير إلى أن هذه التيارات كانت تميل إلى معيار تكفير الأفكار قبل تكفير الناس، هذا التكفير الماثل في التفيْهق والتحذلق بالشطط والمبالغة، والميل إلى الانحرافات التي تعاظمت في كيان الأمة من دون مسوغ أو حكم قطعي الدلالة؛ الأمر الذي عمق الإذلال، وأوجب الإرغام، وسوَّغ التعريض، وأباح القذف، وبالمقابل كانت هذه الصراعات تعطي استبصارا لما كان من تشاحن، انخرطت فيه أطراف محسوبة على النهج الديني القويم، بعيدا عن الترهيب والتهديد؛ وبالنظر إلى ذلك يعد كل فكر نابضٍ مارقًا على النحو الذي صاغه سرد الرواية في هذا الحوار بين السارد وحبيبته [هبة]، وهما يبتعدان عن جلبة هذه الفرق، حين قالت هبة: ماهذا التحكيم للسيف في كل شيء؟ - يا حبيبتي، ارتياد هذه الأماكن المنعزلة عن مقر الخلافة قد يشكل خطرا كبيرا علينا، المدينة مترعة بالفرق والجماعات، ويجب أن نغادرها سريعا، ستكون الأيام القادمة حبلى بالصراعات، وسيذهب ضحيتها كثير من الأبرياء. لم تعلق هبة

على ما قلت، كثيرا ما تجيب بصمتها، خلتها قالت لي :وهل بقية الأماكن سالمة؟ أينما نول فهناك جماعات وفرق متناحرة[11]، وكأن ردَّ هبة الداحض يؤكد جذور صراعات هذه المذاهب الراسخة في المرجعية الثقافية، التي مازالت ماثلة في واقعنا المعاصر وتفرعاته المعقدة، وهي تستمد مقوماتها من مصدر الضمير الجمعي منذ نشأة النواة الأولى لفرقة الخوارج التي انشقت عن الإمام علي عام 37 للهجرة، وزرعت الشك في الذهنية العربية إلى حد الخروج عن الملة، وترسيخ العداوة بين المسلمين وجرتهم إلى الفتن المتتالية عبر العصور، والرواية مفعمة بالحديث عن الفرق الدينية الضالة التي وطّنت الصراعات الطائشة، المنحرفة عن المساعي الأصيلة؛ إذ لم يشهد التاريخ أن مزقت ديانة ما مسارها العقدي والفكري كما مزقت المذاهب الدينية المحسوبة على الإسلام انسجام الأمة، ودحر مقوماتها سياسيا وعقديا، امتثالا لفهم كل طائفة إيمانها المطلق برأيها المتفرد دون سواها بالطاعة لتطبيق الشريعة، وأنها أولى من غيرها بالحقيقة، كما أشارت إلى ذلك [هبة] "وهي تلتقي عجوزا تركن إلى ظل جدار وقد أخذ منها التعب مأخذه - ما الذي يقع يا خالة؟ حدجتها العجوز طويلا واستلت لسانها تبلل شفتيها. - إنها الفتنة العمياء يا بنيتي، إنها الفتنة العمياء. وسقتها هبة من قُلة كانت معها، كأنما تشجعها على مواصلة الكلام - والفتنة نائمة يا بنيتي، لعن الله من أيقظها. وتحرقت شوقا للتفاصيل، فجلست إلى جوارها كأنما أطمئنها إلينا، واصلت العجوز دون أن تصرف نظرها عن هبة. - إنهم النُكّار، النُكّار يا بنيتي خذلهم الله، يحاصرون مقر الإمامة يسعون لقتل الإمام[12]. وفي هذا الحوار ما يكشف عن الدال القرائني فيما كان يجري من صراع بين الطوائف، ومازالت رواسبه تغذي الأجيال المتعاقبة، وتمتد أعراضها السلبية في حياتنا اليومية؛ المشحونة النعرات القريبة من الشيزوفرينيا بحسب تعبير المفكر الإيراني داريوش شايغان في كتابه أوهام الهوية، اعتقادا منه أن انعدام التوازن من شأنه أن يفوت فرص الانسجام، نظير سيطرة القوة التي أدت إلى ارتكاس الذات وقيمها، ولم يكن ذلك ليحدث، لولا إغفال الناس التعاليم الأخلاقية، وارتكابهم الخيانة بحق الروح، وتاهوا عن رسالتها الأصيلة،.. والحل بسيط؛ يكفي أن نعيد الصلة بالروح التي تحييها، وأن نستعيد النماذج المثالية من العصر الذهبي حتى تعود الأمور إلى نصابها.. ولنغص في مياه الأصول العذراء، فنخرج منها متحولين، منشطين، وقادرين على مواجهة أكثر القوى خصومة[13]، وهذا لا يعني الارتداد إلى التصور النمطي للهوية والعودة إلى الطريقة التي فرضها التفكير التقليدي بالامتثال للمرجعية الثقافية، ولعل داريوش شايغان في تعرضه لاستدعاء النماذج المثالية لا يعني الانكفاء على الذات والتقهقر، إلا بقدر اقتضاء ما يوجبه فينا التأمل في الهوية، بوصفها مفصل تحول لتأسيس وعي الوجود الذاتي.

وإذا كانت الهوية - بغاياتها، ومضامينها - ظاهرة إنسانية تواصلية، وعنصرا مهما من ماهية الإنسان، وموسومة بهوية ذويها، فإننا نعتقد أن كل ما عدا ذلك يعد انسلاخا من مرتكزات الهوية، وتحولا عن منزلتها، ومن سياقها الحضاري، وبواعز هذه النظرة فقد حاولت هذه الفرق في نظر سرد [العشق المقدنس] أن تسوّق لتعاليم الدين الإسلامي بنظراتها

النموذجية المزعومة، بصرف النظر عما تراه الفرق الأخرى في صوغ رؤيتها، وتشكيلاتها المنحازة إلى التعصب؛ وكأن الإسلام دستور وضعي بحاجة إلى أن يصاغ بحسب القياس والمماثلة، أو ما يكون على صوغ الأهواء في المنظومة الفكرية، وحياكة الدين والأعراف والتقاليد وفق النظام السياسي المتبع، الذي انتهج تحطيم التآلف والتماثل فيما تم تشريعه من أحكام لتنظيم حياة عادلة، وصيانة الكليات الثابتة في المجتمع العربي عبر توالي العصور.

ونظرا إلى أن المذاهب والفرق الدينية ليست على رؤية واحدة في تطبيق مصدر الشريعة الإسلامية، كان لا بد من نبذ ما ورد في مواقفها، بحسب سرد الرواية، في ضوء استبصار السارد مع [هبة] عما وصل إليه الوضع من ضآلة الفكر الطائفي، الذي يمارس سياسة قصور المعرفة في الحياة الاجتماعية والثقافية بالتخويف والترهيب؛ ليس على مستوى الأفراد والجماعات فحسب، ولكن بمنظور إمكانية الانتشار على المدى البعيد لمستقبل الهوية، وهو ما يعكس الخلل المخالف لسنن تركيبة البنية الثقافية التي أوجبها انتكاس الوعي؛ المتضمن استبدال الناشز بالسليم، والطالح بالصالح، واحتواء التنابذ مقابل المصافاة، وتحويل النظام الثقافي المعرفي إلى نظام طائفي متزمت، وهو السياق نفسه الذي يمارس في الوعي الراهن الذي بدا يستمد مقوماته من المحاور الثقافية التقليدية، بوعي متصل بالماضي، دفاعا عن رأي السلف، من دون أدنى تجاوز ما خطه وعي الطوائف من حجج في معظمها غير مقنعة، على وَفق استنادهم إلى التعامل مع الأحكام الشرعية بالرأي، فكان من نتيجة ذلك أن تشعبت المذاهب، وهو ما جعلهم يستوحون من القرآن كثيرا من الأحكام والمفاهيم التي تلائم تياراتهم المذهبية؛ مما شجع على نشوء فرق دينية متفاوتة في الرأي، وبهذا أصبح كل رأي يجتهد في إنارة السبيل، وتوضيح الرؤية، وذلك باختراع معان للآيات، تنسجم مع أهوائهم؛ من دون أن يكون في ذلك قرائن تدل على تأويلاتهم، وهكذا كان ميلهم إلى خلق طرائق قائمة على اختلاف وجهات النظر في تفسير النص الديني، وعلى ذلك استند الصراع العقائدي بين المذاهب بعضها ببعض، وقد أخذ هذا الصراع مجرى انحرافيا في خضم هذه الخلافات التحزبية، والحالة هذه، كثيرا ما كان يقصده أهل الأهواء والأطماع الفاسدة سعيا إلى ابتغاء تأويل النص، وتحريف أفكاره إلى ما يتلاءم وأهدافهم الباطلة.

واضح - إذن - بحسب ما دار في السرد أن التأثير في الوعي الاجتماعي غالبا ما كان يحدده التلاعب بالذهنيات والمشاعر؛ لرسم منابع السلوك والمواقف؛ ما يعني أن سيرورة حياة المجتمع كانت – وما زالت – رهن القوة المسيطرة، سواء ما كان من توجيهات بالرضا، أو بالحنق والإكراه؛ وأي مبادرة لا يمكن أن تنبع إلا من التبعية في إذعانها للأهداف المحددة سلفا، وبحسب ما تتطلبه البراعة في التخاطب، وبالحِذق في كسب مشاعر الآخرين على غرار ما كانت تتعامل معه المذاهب، وزعماء الفرق الدينية.

بعث الذاكرة الملتبسة/ إثارة النسيان

تمثل الذاكرة في صراعها مع الآخر الشرط الممكن مُغيثه، وعاضده؛ للذود عن صون الهوية بوجه عام، والدفاع عن حياض قيم إيماننا، عبر الذات الفاعلة، ولعل حاجتنا إلى ذلك شاهد على المنافحة عن المقومات النبيلة، والأفكار الصادقة، وعن مصير هويتنا الحتمي، وكلما زاد الأمد إلا وزادت حاجتنا إلى نصرة الهوية، حتى تكون العلاقة حميمية بين الذات

ومرجعيتها الثقافية، وإذا كان لا بد من النظر إلى هذه العلاقة، فإن حضور السلطة، بجميع أنساقها ووظائفها المعبرة عن القوة، تعدُّ محورا مهيمنا على جميع الأصعدة، وفي جميع مفاصل الحياة بعقباتها الكأداء. وفي ضوء هذا يصبح من الواضح أن الرواية مع أفكار جيل زمن الـ [ما بعد] تنتج نقدا بحجم ما تقدمه سلطة المرجعية المتلاعبة، أو السلطة في علاقاتها بالقوة، على حد تعبير فوكو، وبجميع أشكالها في الواقع، وبحسب ما تمليه سيرورة الحياة السائلة، بوصفها نتاجا من نتاجات السلطة بمفهومها الشامل، الذي يتجاوز المعنى السياسي إلى المعنى في سياقه الاجتماعي المفعم بالضغائن، نتيجة الممارسات السياسة في سلطتها المتطرفة، وهو ما أنتج – منذ فجر التاريخ العربي الإسلامي - واقعا مختلفا عن الواقع المأمول؛ وفي ضوء ذلك تعد السطلة، كما عبر عنها هيدجر، متضمنة القوة المفرطة، ومسهمة في تصدير العنف بوسائط جديدة، تتناسب مع وسائل أفكار التبعية حتى تصل إلى غايتها.[14]

يبدو أن حال صيرورة الذات في المرجعية الثقافية لا يختلف عن راهن سيرورة طبيعة الذات بتعدد مشاربها تباعًا، وتنوع مآرب ميولها في واقعنا؛ ما يلفت الانتباه إلى أن هناك تشابهًا في جميع الأوجه التي حددها السلف، وأن التماثل ضارب في عصب الجسد العربي منذ الأزل إلى يومنا هذا، وأن ما كان أثبت أنه هو ما يكون على الدوام؛ من دون أي اختلاف إلا في الشكل، أي في الإبدال الاستعاري؛ بما توفره بعض الانعطافات المستجدة؛ بالنظر إلى التثاقف مع الآخر في الوسائل الاستنزافية، والإثارة الاستهلاكية، التي من شأنها أن تغرس أفكار الآخر في عمق رؤانا؛ بخاصة الآجنة منها، بعد أن بات شعور اليأس يكبل الأحلام، ويجهض ترقب الوجود الأسمى، ويسلب قوانا، ويصفِّد رؤانا؛ بفعل المخالب الجارحة، والأفكار الآثمة، والأفعال الخاطئة، كما أشارت إلى ذلك هبة إلى السارد، وهي تشجعه على الفرار من العوائق التي تقف في وجه المستقبل، قولها: "لن نستطيع الفرار من أقدارنا للأسف الشديد، جبال الغباء التي تراكمت عبر القرون لا يمكن اجتيازها بسهولة، لأننا جميعا مكبلون داخلها.

- فيم تفكرين حبيبتي؟
- أفكر في الرحيل.
- وإلى أين نرحل؟
- وهل قليل ما فعلنا؟ صرنا كزورق يمخر الصحراء، لن يرحل إلا إلى ذاته، كل الأزمنة صارت عندنا متشابهة، بطعم واحد، بلون واحد، برائحة واحدة، نتلمسها معا فلا نفرق بينها، الماضي هو المستقبل، وهما الحاضر، والجميع سديم ..سديم[15]. على هذا النحو تبدو فكرة سلطة التلاعب بالضمائر والمواقف مستمرة إلى يومنا هذا بالدال الاستعاري، ورسم المواقف بتهيئة الوعي؛ لتكون لديها قابلية الاستجابة والإذعان، وقد أشار إلى ذلك من قبل الأمير عبد القادر في كتابه [ذكرى العاقل وتنبيه الغافل]، فيما يتضمن فكرة أن الحقيقة ليست ملكًا لأحد، ولا هي وصاية من مذهب أو طائفة، بقدر ما هي ثمرة جهد الجميع؛ إذ

العالِم لا يهمُّه ما إذا كان الحق صادرًا عمَّن حَسُن الاعتقادُ بهم أم لا؛ ذلك أن الحق يُعرَف بالدليل لا بالتقليد. وفي ضوء هذه الفكرة يقسم الأمير عبد القادر الناس إلى قسمين: قسم عالِم مُسعِد لنفسه ومُسعِد لغيره، وهو الذي عرف الحقَّ بالدليل لا بالتقليد؛ وقسم مُهلِك لنفسه ومُهلِك لغيره، وهو الذي قلَّد آباءه وأجداده فيما يعتقدون ويستحسنون، وترك النظر بعقله، ودعا الناس لتقليده. بله إن الجزائري يرى **أن بهيمة تُقاد أفضل من مقلِّد ينقاد**[16].

تنبثق من شخصية هبة في رواية [العشق المقدنس] كل معالم الانتماء بجميع مفاصله الإيجابية في حق الذاكرة، إن لم تكن هي التاريخ ذاته، الذي يرجع إليه الضمير في صورة السارد، بما يستدعيه التخييل في جوهره، بوصفه نوعًا من التوحيد بين الشيء وتصوره، وبين المبدع والمتلقي، أو بلغة الإبداع الفني، يكون التوحيد ماثلا بين الرؤيا ومدركاتها الحسية، ولا فرق في هذه الحال بين النص التاريخ، والنص السرد، والمتلقي الذي يستنتج منهما ما يناسب المراد الحصول عليه، وشكل الشيء الذي يتصوره، ومن هنا **"يصبح للمعنى وجود آخر"** حسب رأي حازم القرطاجني. وفي هذه الحال تبدو شخصية [هبة]، بوصفها المتلقي الأول للحدث التاريخي، وصانعة السرد التخييلي للتاريخ، هي اللاشعور الجمعي في خطاب الذات، وهي التي تدعو الضمير إلى بنية ذاته في مواجهة الآخر المتلاعب بالوعي، وتبديد مكاسب القيم والمبادئ، على الرغم من أن هذا الآخر هو من فصيلة الذات نفسها، ونتاج الهوية ذاتها، لكن رعونته، وانحرافاته عن المسار الحقيقي أدى بهذه المكاسب إلى أن تكون في محك الجدل بالغواية والزيغ، ويزرع كل ما من شأنه أن يؤدي إلى المحنة والبغضاء، ويعترض سبيل الإحساس بالانتماء إلى الهوية، وإلى كل ما يمكن أن يعوَّل عليه، لذلك واجهت [هبة مع حبيبها السارد] كل الابتلاء والخَطْب؛ مما كان يحاك حولهما بالرعونة في التدبر بالوهم من الأطراف الضارة، التي تحاول أن تصنع الحدث، وتنتج الفكر بناء على مسوغات الاشتهاء بالانحراف لمرآة الذات في نظامها ومسيرتها، وبحسب العلاقة المتحركة من التوجيه المضمر غير المستقر على حال، ولعل هذا الخفي هو ما نَصَبَ غرسه في ذهن الذات الواعدة، بوصفها مرآة عاكسة بالمعنى الانثروبولوجي/ الثقافي، وهي الصورة الدالة على انشطار الذات مع نفسها، والوقوف في إمكانية تشكل إعمال النظر، والتصدي لكل فعل من أفعال الواعي المُجدي، الذي من شأنه أن ينيف على الوصول إلى القصد الحضاري، أو ما يمكن رسمه، أو تصميمه من رؤية يمكن إنفاذها، على نحو ما جاء في السرد" كانت هبة ترسم لي شكل البيت الذي تسعى إلى إقامته في حضن الطبيعة، وتصور لي حياتها التي تحلم بها، بعيدا عن صراع الجميع، حياة بساطة ولكنها حياة كفاح أيضا، وحياة محبة وإخلاص، ولم أكن أجيب، لكني كنت أحلق معها فيما تحلم[17]. يمكن النظر إلى هذا النوع من الاعتراف الذي رسمته شخصية [هبة] على أنه موقف يليق بمستقبل الوطن، غير أن إعاقة هذا المسعى في نظر الرواية هو الذي خلق - إلى حد كبير - نمطا من قرين التأثيم والإدانة للتثبيط والتَّخييب مع ما يتم التفكير فيه، وعلى الرغم من أن هذا الإحباط يصنَّف ضمن الوصف المؤدي إلى العنف الثقافي، المرتهن بالعنف الطائفي، فإنه يولِّد مسوغات الإكراه في الذهنية المحتاجة إلى استقرار الوعي المتلاعب به، وما تحتاج إليه من تأسيس لمفهوم التثبُّت، والتوطن؛ أي دوام من يحق له أن يعد ذاتًا في

حدود ما ترمي إلى تحكيم الذاتية..أي مواقع التفاوض مع الذوات الأخرى، ومع النظام الاجتماعي المحيط بالذات، ومع نظام العدالة السائدة، والطريقة التي تشكّل بها هذه المشاهدُ الذات.. حين تخاطب الذات الآخر وتتلقى خطابه، وهذا الانفتاح على الآخر هو السبب في أن تشكل الذات عملية لا تقع كلها في متناول الذات وبرغبتها، بل هي اجتماع عوامل متنوعة تتسبب في وجود عتمة يصعب النفاذ إليها، محكومة بالعلائقية، معتمدة على الخارج. وهي العتمة التي تصدر عنها، وتتجه إليها علاقاتنا الأخلاقية، والتزاماتنا.[18]

يشكل الضمير في رواية العشق المقدنس وجدان الذات، في شخصيتي [هبة والسارد] بوصفهما صِنْويْن للمتخيل من ذاكرة المرآة الفاعلة، ضد الذات المعطلة المفعولَ، حين تستبدل هذه الذات المُحبِطةُ إجهاضَ الوعي بإعمال النظر، أو التباين بالتآلف، وفي هذا إسقاط على واقعنا الذي ما زال يتخبط في المصير نفسه؛ بتغييب الأنا الفاعلة، التي من شأنها أن تبحث في تنظيم حياتها بالمنظور الاستشرافي، غير أن استبعاد طموحاتها من دائرة الإنجاز والنمو عطّل من الرؤيا الاستشرافية الداعية إلى الازدهار والتقدم، في مقابل تمكين الصورة المقنَّعة بالتبعية لأهواء الاتجاهات الغاوية، والطوائف الحَرونة، وقد كان ذلك من خلال التأثير على المشاعر باستغلال الدين مطية للتلاعب بالذهنيات، سواء بالتمويه، أو بثْني بعض الآيات القرآنية من قبل التيارات والمذاهب الدينيـة علـى أسـاس ما تحتويه من تعصـب، وانغماسها في حمأة الكذب والتزوير، حين كانت تشجع على تفسير القرآن بما تراه يتلاءم مع أغراضها وتأييد مذهبها بتأويلات تعسفية، وقد ترك ذلك أثرا سيئا جر على الأمة الإسلامية – إلى يومنا هذا - كثيرا من البلاء؛ وفي خضم ذلك، فقد اشتغل التفسير بالزيغ في مسألة فهم المضامين القرآنية بترجيح الرأي المفضل، بوصفه ضوءًا يشع على الأحاسيس، ويعطيها إشراقة حتى ولو كان هذا الرأي مزيفا للحقيقة، تماشيا مع ما يعتقده هذا التيار أو ذاك، فاشتد الخلاف بين المذاهب والطوائف في هذه العقائد؛ من باب وجهات نظر فاسدة لما تكنه من خفاء المراد المدسوس بالنظر إلى المعنى الحقيقي المقصود.[19] كل ذلك كان بدافع النفوذ، وإحداث التأثير القوي في الوعي على مر العصور، أمام هذه الميول المرتبطة بالتباين والخلافات الحادة بين الأفكار والمواقف من المذاهب والطوائف، كان الوضع الاجتماعي والسياسي والثقافي يغرق في مستنقع الوحل، وما يزال بحسب ما ترويه رواية [العشق المقدنس] يتعفر في مزالق التمرغ في الطين، وفي هذا الحوار الذي دار بين [أبو البنين المتيجي] الذراع الأيمن لأبي علي محمد بن عبد السميع بن السبط بن علي البوني المناهض للفكر الشيعي، ما يشير إلى استشراء الفساد السياسي، حين يحصل استمرار الخروج عن طاعة ولي الأمر؛ أيا كانت فصيلته؛ لذا كانت الطوائف تفرض على الناس الأفكار بحسب ما يقتضيه الحال، خوفا من انتشار شر الطائفة الأخرى، وفي هذا الصوغ ما يبين دوام الوضع، عبر تعاقب الأزمنة، كما في قول [المتيجي] للسارد "ديننا في خطر، الإسلام في خطر...، كنا نعد العدة، ونحشد الصفوف للقضاء على دولة الخوارج بتيهرت، وعلى الروافض الذين بدأ خطرهم يزحف علينا من الشرق، عيوننا تؤكد وجود بعض رؤوسهم في بلاد المغرب،

يقينا منا أنْ لن ينصرنا الله على أعدائنا حتى نقضي على الزنادقة والمبتدعين... هؤلاء الذين بغوا علينا واستولوا على الحكم الذي هو لنا شرعا وعقلا، هم في الأخير إخواننا على منهج أهل السنة والجماعة، وقد توصلنا إلى أن النصيحة أولى، بدل ما بيننا من موت[20].

ومن المُلبِس أن كل التيارات الفكرية تنادي باسم الدين، وتحاول إبراز قيمة الوعي، وتبتغي إظهار منزلته في استنتاج الأحكام المرتبطة بوجوب النظر والاستدلال بمسألة التركيب العقلي في الخطاب، والاهتداء إلى معرفة الله، ويتضح هذا من خلال نظر كل التيارات الموصل إلى المعارف، بوصفه واجبًا، والسبيل المفضل في حقل الوعي، بغرض اهتداء الرأي، وسبل تحصيله بما يملك الحجة على صحة القول، وفيما له مساس بالمسئولية عن الأفعال النابعة من صحة المدارك من حيث هي واجبات ذات قيم مثلى، وفي هذا اعتبار مستمد – في نظرهم - من استنباط الأحكام، وإدراك المعارف في القرآن، ومن خلال التوجيه الصحيح الراشد الذي يدعو الناس إلى تدبر الأمر بما يدعو إليه الحق الذي ثمنه الشرع، وعلى الرغم من ذلك كانت هذه المواقف – وما زالت – متلاعَبًا بها لاستمالة قلوب المريدين؛ كل هذه الأمور كانت محل تضارب بين الطوائف، كونها تعاني من الاستطالة المفرطة في إخضاع الخصوم وتخويفهم؛ على نحو ما صرحت به [هبة] حين طلب منها حبيبها السارد إحكام إقفال المنافذ، أو موضع دخول المشتبه، واختراقه؛ لأن الناس تترصد الآسن والرائج من قبل هذه التيارات الفكرية، فردت عليه بقولها: لمَ تنجح كل الأفكار والمذاهب في بلادنا في حين تنكسر في موطنها الأصلي؟[21]، وسواء أكان تعاقب الناس بالترصد علنًا أو إخفاء، وسواء أكان هذا التلاعب عن قناعة أو عن طريق الزيف، حتى يبدو وكأنه طبيعي، فإن في ذلك ما ينم عن حاجة المتلاعب بالوعي إلى واقع مزيف، لا يلحظ فيه وجوده. وحين تُكتشف محاولة التلاعب ويصير أمر افتضاحها معروفًا على نحو واسعٍ كفايةً، فإن العملية عادة ما تطوى؛ لأن حقيقة اكتشاف هذه المحاولة تلحق الضرر الكبير بالمتلاعب، وما يتم إخفاؤه بعناية أكبر أيضًا هو الهدف الرئيس؛ **لكي لا يؤدي حتى افتضاح التلاعب ذاته إلى الكشف عن النوايا البعيدة.**[22]

يبدو مثل هذا المشهد الذي يتكرر كثيرا في سرد الرواية أنه يمثل عصب مفاصل الاتجاهات الفكرية والطوائف الدينية، ويبدد أفكار التوافق، ويبذّر قواها؛ الأمر الذي شكل حالة من البغضاء في وعينا العربي المرتبط في هذا السياق بالأنانية والاستئثار بالرأي، والاشتغال على أن يكون المجتمع في غُفل ممن لا يُرجى الخيرُ فيهم، ولا يُخشى الشرُّ منهم، وهو ما سعت إليه كل التيارات والاتجاهات السياسية والدينية بتخدير المشاعر، وهكذا يصبح الوعي المتلاعب به غايةً؛ إما عن طريق الكناية بما يقتضيه المعادل الموضوعي للضمير الجمعي، أو بما يوجبه الوضع الاجتماعي المفضي إلى الاستسلام للأمر الواقع، وفي الحالين يدل الموقف على الضرر بالذهنية، والوعي الثقافي الاجتماعي، وحدوث تخريب في الذاكرة ضمن العلاقة المتبادلة بين جميع الأزمنة عبر ترسيخ الإحساس باليأس، وهو ما يشكل تحريفًا للحقائق، وقمعًا لما يمكن أن ندركه تباعًا؛ وبسبب هذا - كما جاء في قول بول ريكور- نجد أن الجبرية التاريخية، التي تدعي أنها تتبوأ مستوى يعلو على التفسير السوسيولوجي، تتفتت من الداخل بدورها؛ بفعل العرضية المستبقاة في السببية التاريخية؛ حيث العلاقة السببية متناثرة، لا تكون نموذجا، ولذلك فإنها لا تفسر بعضها بعضا كما تفعل

القوانين. بهذا المعنى تشير السببية السوسيولوجية رجوعا إلى السببية التاريخية بدلا من أن تستوعبها داخلها.[23]

وربما كان مستوى التلاعب بالضمير الجمعي في ثقافتنا العربية، منبثقا من الانحرافات الفكرية والمذهبية التي تفشت في كيان الأمة العربية الإسلامية، وأسهمت في تجفيف العقول، وحوَّلتها إلى هشيم تذروه الرياح؛ لتجد فيه النار ملجأ، يمتد إليه اللهب، سرعان ما يتحول إلى رماد، هكذا هي العقول النيرة التي أضحت رمادا في كل زمان ومكان، وأصبحت أثرًا بعد عين، لا لشيء إلا لفرض الرأي المتحزب في مقابل تكفير إعمال النظر؛ حتى في أبسط الأمور التي كانوا يتحاججون فيها، فتؤدي بهم إلى الخصوصية النزقة، ومن هنا يصبح الجدلُ الأضرُّ أذيَّة للدين قبل الهوية، كما في هذا الحوار الذي دار بين السارد والعميد حين كان يتابع مشهدا من الصخب بين خصوم طائفتين، وهو يتألم مما رأى من انفلات قد يحيل المدينة إلى كومة من رماد، ففاجأه العميد (رمز العلم) وهو يجلس إلى مقربة منه قائلا: - أدهشك المشهد فلم تفطن إلي. قلت بحزن: - أجل، أتصور أن معظمهم من دهماء الناس ورعاعهم. – إنهم النُّكار بقيادة يزيد بن فندين، يريدون إلزام الإمام بشروطهم، حتى يكون لهم رأي في كل مسألة كان المشهد مغريا بالنسبة إلي، تتوق نفسي لتعرف حقيقة الطائفة وأفكارها، وتسللت رفقة العميد نحوهم، كان ابن فندين في قمة غضبه وهو يأخذ العمامة من فوق رأسه ويضرب بها الأرض صائحًا: - لن نسكت حتى نرمي بهم كسقط المتاع، ووالله لن ندخل المدينة حتى يخرجوا منها، بل حتى يعزل الإمام ويعاقب. وأخطأ أحدهم فتلفظ بتيهرت، فاشتد غضب ابن فندين وخاض مسألة لغوية متشعبة في التفريق بين الألف والياء، وأيهما أصلح وأهم، أنهاها بقوله: - إ ن سادتنا الأُوَل رفعوا من قدرها لرفعة أقدارهم، فمدوا تاءها إلى الأعلى، فلما خلف من بعدهم خلف جروها حقيرة ذليلة، لحقارتهم وذلتهم، ولن نسكت حتى نرفع قدرها مرة ثانية[24].

لعل الإثم الكبير الذي وقعت فيه هذه التيارات الفكرية هو توزيع صكوك الغفران للمريدين، من جهة جواز الرضا والشفاعة، وإلصاق الخطايا بمن مالوا وأعرضوا عن أفكار الخصم، لذلك وجب عليه التجديف؛ كونه لم يستطع أن يفي بما ائتمن فيه من قداسة الشريعة وعدالتها، والعكس صحيح، سواء بسواء، من جميع الأطراف المتنازعة، حتى لكأن الأمر مشتبه في أيٍّ من هذه الطوائف أصح وأحق بالحكمة المطلوبة، وأيُّ إنكار، أو ضلال، للمنكر واجب؛ فالتبس الأمر على العقول النيرة في التمييز بين تكفير الأعمال، وتبرئة المقولات من القذف والأذى، ومصادرة الرأي، وقد ترسخ ذلك بشكل جلي في الذاكرة عبر التاريخ، فلم يعد هناك فرق بين ما رسمته الشخصيه التاريخية، وما صانته الذاكرة في ناصيتها المتعاقبة مع محاولة الأجيال تفسير ذلك بنوع من العلاقة الطردية القسرية؛ بخاصة حين يزداد البون بين التاريخ والذاكرة في المرحلة التفسيرية، حيث تخضع للفحص كل الاستعمالات المتداولة للربط **"لأن.."** بالطبع إن التزاوج بين التفسير وبين الفهم الذي لم نتوقف عن التشديد عليه، يستمر في المحافظة على الاستمرارية بفضل المقدرة على اتخاذ القرار التي يمارسها فاعلون

اجتماعيون في مواقف تَردد، وعن طريق هذه الوسيلة، الاستمرارية في فهم الذات المعتمد على الذاكرة. غير أن المعرفة التاريخية تعطي الأسبقية إلى أشكال من المعنى، تتخطى موارد الذاكرة حتى الجماعية: تمفصل بين الأحداث وبين البنى والترابطات، تزايد مقاييس الديمومة التي تمتد إلى مقاييس المعايير والتقييم، توزيع المواضيع الملائمة في التاريخ على مستويات متعددة اقتصادية، وسياسية، واجتماعية وثقافية، ودينية.[25]

البحث عن الزمن الواعد/ المِرصاد بالغوث

مر بنا أن رواية العشق المقدنس هي نوع من الصوغ ذي التخييل التاريخي؛ إذ فتحت صفحاتها على استدعاء التاريخ، من دون العودة إليه؛ بجثوم سرد الشخصيات الفاعلة، حتى لا يصيبها الضرر من محاكاتها لزوم ما يلزم بالعلاقة الطردية للتاريخ، ولم يتوقف عزالدين جلاوجي في رصد ما في التاريخ من مثالب فحسب، ولكنه أبصر المأمول من اللامقول في السرد؛ بدافع استلهام الرشاد، والاستقامة، والإشعار باليقظة لما كان من أحداث ينبغي التعرف إليها، وما ينبغي أن يكون؛ لبعث الذاكرة؛ بما يوجبه حق الأجيال من المعرفة، ومن هنا يكون ربط صلة التخييل بالتاريخ هو إعادة استحضار المرجعية الثقافية على وفق ما تمليه الصورة الذهنية في ومضتها الكشفية، وبحسب ما يقتضيه الأثر الذي تتركه هذه الصورة في المتلقي؛ لأن الموضوعات التي يباشر بها الوعي التخييلي هي موضوعات غير قابلة للحدّ، أو بالأحرى هي موضوعات متحركة زمانيا ومكانيا، من حيث كونها - أي الصورة التخييلية التاريخية - تعنى بفعل الرؤية، وكشف الرؤيا، ومن هنا جاءت رواية "العشق المقدنس".

وإذا كنا نعتقد أن كل صورة تاريخية، إلا وهي قابلة لأن تتحقق في الواقع نظير مسوغات كثيرة، بخاصة في ثقافتنا العربية، فإنها من باب أولى تبعث في المتلقي حافزا يهدف إلى الحصول على ما كان يفتقر إليه من معلومة، أو إلى خلق تصور لم يوجد في ذهنه من قبل. ومن هذا المنظور تنشيء الصورة التخييلية للتاريخ وعيًا نابعًا من الفراغ إلى الملأ، أي من المعمول إلى المأمول، أو من الغيبة إلى الحضور، بحسب كفاية كل متلقٍ وطريقة تقبله، والاتجاه الذي يميل إليه، لا لشيء إلا لأن كل **فرد/ مجتمع** إلا وهو محاط بما يمليه عليه واقعه، وهو ما يدفع هذا الفرد، أو ذاك المجتمع، إلى البحث عما يريد الحصول عليه، ومن هنا يتحول إدراك المتلقي للصورة من الحقيقة التاريخية، الممكن تخيلها، أو تصورها، إلى وجود بديل يثير فضوله، رغبة في تجاوز الواقع التاريخي القاتم، والسعي إلى الارتماء في كنف الواقع المشرق، وتبدو فكرة الرغبة في هذا التحول لدى المتلقي كما لو كان انتصارًا على المجهول بفعل مستودع الصورة التي ترسم لديه فكرة الاتحاد بالمطلق، بعد أن أبعدت من وعيه فكرة اللاممكن، قبل أن يكون رهين السائد، والمسلم به.

وفي ضوء ذلك، جاءت رواية [العشق المقدنس] لتوقظ وعي المتلقي، أو تستثير حفيظته بالشكل الذي يتصوره من النص، بوصفه منجزًا متغيرا، قابلا للترجيح، ولا يقبل اليقين القطعي الدلالة، أو أنه شكل نهائي، وإنما إعطاء فرصة الاحتمال للتصور سمة بارزة فيه، كما لو كانت الصورة التخييلية في [العشق المقدنس] نسيجا يفصّل منها المتلقي ما يراه مناسبا، وبوسائط متجانسة مع ما يراد الوصول إليه، أو النظر فيه؛ لأن النص في منظور الإجراءات النقدية على استعداد تام للانسجام مع أي تحليل، بالإضافة إلى أن الظاهر فيه لا

يعبر عن مَرَام المعنى في حقيقته مطلقا، اعتقادًا منا أن الدال في الإبداع لا يحتمل الثبوت والإقرار، وإلا فإنكار دلالته على ثبوت المعنى وانتفائه معلوم البطلان قطعا؛ إذ لا معنى للدلالة إلا فهم المعنى منه[26].

يُعزى السرد في [العشق المقدنس] إلى فاعلين أساسين؛ **الأول** منهما يمكن أن نطلق عليه نسق الزمن المرجعي، الذي كان حبيس الماضي، وقد عفت عليه رياح الديمومة، وأزالته من الوجود، **والثاني** ما أطلقنا عليه بشخصية الأنا الفاعلة المسايرة للأحداث والوقائع، كونها شخصية داعية إلى التحول واستشراف المستقبل؛ بغرض تجاوز القديم الغابر، الذي باتت تفرضه شخصيات تاريخية بانتمائاتها الطائفية، وهو ما تحاول [هبة] أن تخرقه، وتتدارك أخطاءه بإنتاج تاريخها الحضاري المسهم في بناء مستقبل مأمول، كما جاء ذلك في مقاصد السارد - المغيب الاسم عمدًا، حتى يكون رمزا لكل إنسان غيور على هوية الكينونة، والوجود الواعي المستنير- الذي يبحث عن الحقيقة في جموح شخصية [هبة] رمز الوطن والهوية الأصيلة، بالإضافة إلى كونها تشكل قسمات التراث الماجد؛ بما يستدعيه المستقبل الواعد في ضوء مستجدات العصر، ومتطلبات تطور الحياة.

كانت [هبة] - بمعية لسان شخصية حبيبها السارد - تمثل قيمة حضارية في مواجهة الزمن الرميم من جوانب متعددة؛ لعل أهمها مقاومة الصراعات الطائفية النزقة في طيشها؛ بمشاحنات ليس لها علاقة بواقع الحال؛ لذا كان التاريخ المتحجر بالنسبة إليها يمثل عقبة كأداء، وهي الصورة التي عبر عنها السارد بقوله: هي الأزمان تعبر أمواجا من سراب، تغشانا بالبلاهة، تسخر منا، تحصد من أحداقنا حزم الضوء، تزرعها بساتين للملح الأجاج. من أي العيون سنعرج ولا عيون؟ في أي الأنهار نستحم وقد كفننا الجفاف؟ ونبيت نصرخ في الخواء اللعين: - أيتها النجمات الكفيفات.. اتقدي، كفاك كل هذا الخنوسْ. - أيها البدر الأخرس.. تبسم، كم يقتلنا هذا العبوسْ. - أشرقي ياعروس السماء. أعيدي إلينا دفء الأنبياء. نَلِجُّ في السؤال. نَلِجُّ في الدعاء. مدي هِبَتي يدا نَخُضْ في الدروب الكئيبة، مديها نطوِ هَاتيك العقبات الكأداء[27]. ولربما في هذا النص ما يشر إلى طموحات السارد على لسان [هبة] وهي تنتقد الماضي الغابر، بوصفه نسقا مُتَوانيًا، جُلِب للاجترار من دون إعمال النظر؛ لذا كانت هبة في رؤيتها الاستشرافية تبحث دوما في المبررات الوجيهة؛ وفي مسوغات تداعي الأفكار الرميمة، في مقابل التحري، وإعمال النظر، سعيا إلى تأسيس وعي مرشِد للتفكير الناقد؛ بغية الوصول إلى نتائج هي بدورها بحاجة إلى ما يدعمها من براهين، على خلاف ما يدعو إليه الوعي الشاهد على ما يُرْوَى له من صوغ حصيلة الضمير المرجعي الدامس، الذي يؤكد إعادة إنتاج ماض، يظن مناصروه أنه يسهم في تعزيز الارتباط العاطفي للحفاظ على الهوية؛ فيما هو في حقيقة الأمر - بحسب السرد - يحيل الوعي إلى الإحجام والانكفاء، كونه لا يستند إلى الاستدلال العقلي، الذي يتسم بالتساؤل النقدي في واقع الحياة الاجتماعية والثقافية على وجه الخصوص؛ إذ في الوقت الذي يحول الواقعُ الماضي إلى مصدر للهوية، وشد لحمة الجماعة، فإن التاريخ النقدي لا يرى للماضي أيَّ خدمة يمكن أن يقدمها للحياة إلا

فيما هو أثيل، ولهذا يعمد الغابر الرتيب إلى تدمير سيولة الحياة التي تتغذى من التجارب ذات الصلة بالمستجدات المتلاحقة، بعيدًا عن اليقين الدائم في الحقيقة المطلقة، بوصفها الشيء الثابت، الذي لا يقبل جدلا حوله، أو تشكيكا فيه، على خلاف ما يمليه التفكير الناقد الذي يكرس القيم العقلانية، والموضوعية، والتعددية الفكرية، والتسامح في القضايا الخلافية بما هو أجدى، من خلال تعزيز كيفية الحجاج والحوار مع الآخر؛ لأن الحقيقة ليست حكرا على أحد بعينه، كما أن العجز عن التفكير بالسبل النقدية غالبا ما يكون عاجزا عن تقبل رأي الآخر، وفي هذا السياق رأى نيتشه أن التاريخ النقدي يسمح لنا بالتحرر من ثقل الماضي، خصوصا أمام خطر أن ينتهي التاريخان الأثري والعادياتي – في حال إساءة استعمالهما – إلى نوع من الجمود، إنه كما كتب بول ريكور معلقا "يعيّن لحظة النسيان المستحق"[28]؛ لذلك يبدو أن محاولة استنساخ التاريخ بمثالبه في نظر [هبة] بالنظر إلى ما يشغل الناس، لم يعد ممكنًا كما كانت عليه الحياة من ذي قبل في نسختها الأصلية، التي أوجبتها ظروف تختلف كل الاختلاف عن الظروف المستجدة؛ ومن هذا القبيل تمكنت الاتجاهات الفكرية، والمذاهب الطائفية من تنفيذ برامجها ضمن الخطوط العريضة، وبأولويات معينة تختلف من طائفة إلى أخرى، بحسب اختلاف الصراعات المستمدة من جذورها التاريخية، وكأنها في نظر [هبة] تعيد نتاجها في واقعنا الفكري المعاصر، بتشعباته الحزبية والجهوية، وعوض أن تسهم هذه التكتلات في خلق التناسق للبناء، راحت تنفث سمومها القاتلة، وتبيح أفكارها النابذة، وبمقاصد خلْفها، من شأنها أن تُحكم التكلس، وترسخ الكراهية والبغضاء، وتزرع الفتن على سبيل التلفيق، والتنافر، وتعدِّد العناصر: [الإيجابي يبطل مفعول السلبي، والسلبي يبطل مفعول الإيجابي، والاستقبالي يحيِّد الإرجاعي، والمكتسب يبطل الموروث، والظاهر يبطل الكامن، والخفي يبطل الواضح][29]

كل نسق وصفي في سرد [العشق المقدنس] له علاقة ببنية إحياء حبكة الزمن التاريخي، في ضوء تطويق الزمن السردي من خلال صوغ نسق البنية العاملية لمسار توليد الأفكار من المرجعية الثقافية، التي استثمرتها العناصر الفاعلة، لكي يتم بواسطتها تثمين السرديات الكبرى في المنظور التاريخي، على نحو ما جاء في [العشق المقدنس] التي رصدت حبكة الزمن في اتجاهين، **الاتجاه الأول**، يكمن في الزمن العمودي، بوصفه زمنا يعكس الثبات بتداعي وعي الماضي، في حين تبنى **الاتجاه الثاني**، الزمن الأفقي في تحرر المنظور المشرئب من طموحات [هبة] يترقب حركية الزمن في محاولة الإيمان بديمومة الكينونة المتعاقبة، أي الوجود بما هو موجود في كل حين؛ برؤاه الواعدة عبر ملفوظ تحول الفعل، وهو الزمن القابل للتبدل في كل آن من دون الارتباط بالزمن العمودي وبلا أدنى أفق يمكن أن يستند إليها الواقع الذي يدعو دوما إلى الإبدالات في نظائر قوانين الوجود وكلياته المتأمل فيها على وفق التغيرات الجوهرية، التي تفرضها سنن الكون، على خلاف ردة فعل [هبة] إزاء تفشي التيارات الطائفية في أبعادها الذاتية، بعيدا عن مصلحة المصير المشترك على أساس روابط الآصرة، التي من شأنها أن توحد الرؤى الموضوعية؛ بحسب ما كانت تتصوره [هبة] وهي تتأمل الوجود بما حيك فيه من مآسٍ، وتتبصَّر ما رسمته مثالب المدونة التاريخية المخضبة بالدماء، والمغلفة بالظلام، وهي تصوغ حكْيها على لسان حبيبها في السرد: "نعدو معا، ننفلت من قبضة الليل، تُسلمنا القبضة إلى قبضة، يُسلمنا المخلب إلى

مخلب، براثن في أذرع أخطبوط. نمتطي شعاعا، يعبر بنا فجا كسَمّ الخياط، نسري، نعرج، نستوي على عرش الربوة، يتنزل عليها مجللا بالضياء. إنه القطب./ تمتمتُ./ - إنه القطب./ تمتمتْ هِبَة./ ثارت في أعماقي حرقة السؤال، هزتني الدهشة وهو يجيب: - لابد أن تخوضا جبالا من لجج الظلام، بحثا عن الطائر العجيب، معه ستحققان الحلم"[30].

وراء كل قنوط وابتئاس هناك بريق من الأمل، يتشفع به المرء، وهناك تطلُّعٌ قوامه علامة من البشائر، تؤطر وجوده من حيث لا يدري، وتأخذ بيده على حين غِرَّة، ليصبح القصد على غير حال الوضع الذي يرسمه الواقع، بخاصة حين يستشعر المرء بالخطر؛ كما في حال السارد وحبيبته [هبة]، حين أبرقت إشراقة زرعت فيهما رؤى حِلمية، تكشف لهما تصورا يظل دائما في حاجة إلى الكشف عن الحقيقة، رغبة في تجاوز الوجود الفعلي المأزوم، الجاثم في لجج الظلام، وليس هناك من سبيل وراء هذه الصورة المدهشة في مجال التنافرات القابعة في الذات إلا بإمكان تسامي الذات، وهي تتطلع إلى الرؤيا على ما هو واقعي تائق، وترمق المُنى في استعارة صورة الطائر العجيب لتحيل الديجور إلى ضياء، فيما يحمله هذا الطائر من تمنيات، بحثا عن الخلاص، والتطهر من وطأة فقد الأمل، الذي لازمهما حيثما حلا وارتحلا، وفي كل مرة يجدان نفسيهما على أهبة الاستعداد للهرب من المخاطر، وهو ما عبر عنه السارد بقوله "ولم أكف عن إعادة تصفح شريط ما مر بنا، ظلت صورة الشيخ القطب تلح على الحضور بوضوح وهو يوصينا بالبحث عن الطائر العجيب، وحده هذا الطائر من يريكما طريق السعادة، وتذكرت دهشتي أنا وهبة حين انطلق الشيخ القطب فوق حصانه الذي حلق في الجو بجناحين غريبين، نظرت خلفي لأتأكد من أن الشيخ الراهب لم يبرح مكانه، خشيت أن يطير هو أيضا، غير أنه كان يقلب بصره في السماء داعيا، كانت هبة تندفع باتجاه الغابة لا تكاد تلتفت إلينا، رغم أننا لم نألف هذا الطريق، وهي عادتها حين ترتمي في أحضان الطبيعة، تصير كالفراشة تنفتح على كل ما هو جميل."[31]

ترسخ [هبة] توليفة مشرقة من حلم الضمير الجمعي التائق إلى لغة العقل، اللغة التي فقدت مركزها الفكري دهرًا، اللغة التي تطمح من خلالها المجتمعات إلى بناء مستقبل واعد بمعرفة الذات جوهر كينونتها، اللغة التي تجمع وتوحد مهما كانت النزاعات الفكرية والمذهبية، التي تحيق بها من كل صوب، حيث تترك مثل هذه الصراعات الرعناء وقعها الآبد المفترس في النفوس الآمنة بروحانيتها الطاهرة، والمطمئنة إلى الشعور بالاستقرار، الموصل إلى مأوى التدبر بإعمال النظر. ولم يكن استنطاق الأحداث المؤذية من عمق التاريخ في نظر [هبة] إلا في ضوء ما جلبته من وقائع وخيمة عفا عنها الدهر، وتعامت عنها الأبصار، ومع ذلك تريد هذه الطوائف أن تحوطها بواقع الحال؛ ليعيد التاريخ نفسه إما جهلا، أو تجاهلا، أو تعمُّدا وإصرارًا بإرجاعنا إلى جراحات السِّنان الغائرة من عمق خلافات النزاعات القبلية، والصراعات الطائفية الهوجاء، فلم يكن هناك من سبيل في نظر[هبة] إلا التطهر من هذه الرزيئة المتكدِّسة بحجم معاناة العمر المهدور، الذي طال واستغرق أمدا بعيدا، ويراد له أن يستمر.

وعلى الرغم من أن انتقاد [هبة] لهذه الطوائف بالعودة إلى التاريخ ليس طعنا، أو تشنيعا، أو انتقادا للتاريخ، فإن قدحها يميل إلى التقليل من تحجر وعي هذه الاتجاهات الفكرية التي لم تستوعب التطور، أو استدعاء الجانب المضيء من حضارتنا، لكي نستعيد الفسحة المضيئة منها، لذلك ترفع [هبة] التحدي في مواجهة تصور هذه الاتجاهات السريالية، بعيدا عن أن يكون الواقع مُمْلى من التاريخ بالإلزام، وبالرأي المكبل بالأفكار الرعناء في صوغ مسميات مساعيها المتوانية؛ طائفي، عصبي، قبلي، عشائري، مذهبي، حزبي، تقليدي، اتباعي، رجعي في الطيف الثقافي على وجه التحديد؛ هو كل هذا الذي أرادته الخلافات المذهبية الهوجاء، التي أوقعت المجتمع في الحيرة الأبدية، ولا شيء من ذلك في سريرة الذات من الضمائر الواعدة المتطلعة إلى مستقبل مشرق، فلم يكن هناك من قناعة في نظر [هبة] إلا باستعادة مجد حضارتنا المضيء وبنيل الخلاص من خطايا هذه الطوائف الضالة، والتطهير الكلي من إثم كبواتها؛ حتى تكون الضمائر الحية فاعلة في إنفاذ وعي ثقافي مجدٍ؛ وحال [هبة] يقول على لسان حبيبها: "أن نتطهر معنى ذلك أننا نخطو الخطوة الأولى نحو المستقبل، بحثا عن الطائر الغريب، أن نرتقي هذه الربوة المجللة بالوقار والبهاء، معنى ذلك أننا نسمو على كل ما مر بنا... ابتسمت [هبة]، وقالت:

- ما أروع أن نكون بلا أحقاد.[32]

ولعل التحدي المستمر في مساعي [هبة] بوصفها رمزا للهوية الوطنية، هو التصدي لكل ما هو رثٌ ومهترئ، في مقابل تطلعها إلى مستقبل زاهر، هو بحاجة إلى نهضة تمليها روح الإخلاص للهوية، وإلى ما هو مجدٍ يوجبه تحيين العقل، بعيدًا عن استنساخ الفكر الطائفي في صيغه الحزبية؛ المتجددة بلبوس الديمقراطية السائلة، المسجورة بالإحباط، نظير تطبيق ما يلائمها، وإخضاع الأحكام إلى ما يناسب أهواءها، وإغفال ما يعارضها من المبادئ والقيم النبيلة.

تنتقد [هبة] - رفقة حبيبها - العاطفة الهستيرية المتشنجة للمذاهب والطوائف الرميمة في ثوب مَنْ تتشاكلُ أهواؤهم على مِلَّة واحدة، هي في مبلغها مغايرة للمِلة الأخرى، سياسية كانت أو طائفية؛ ومقابل تصاعد مواقف هذه التكتلات المنحرفة، كان الترقب يحملق بطرفه إلى البشائر بالتفاؤل، بعد طول انتظارٍ عمَّر بقدرٍ غير محدود في الذاكرة، كما كان الموقف المتفائل يُفحم النهج النقلي الذي يتعارض مع الدليل العقلي، وقد ترك الدليل النقلي الذي جلبته الطوائف الدينية آثارا سلبية، وتبعات مازال يروج لها من بعض الاتجاهات المحسوبة على العقيدة إلى يومنا هذا؛ نظير ما حملته المرجعية الثقافية من مآسٍ، وما حلحلته من مواجع، وما ترتب عليه من حسرة على ما آلت إليه الهوية الوطنية، بخاصة حين يتبع التفكير الدليل النقلي المحض بما في الذاكرة من دون الاعتبار للدليل العقلي، وبحسب ما هو متغير في سنن الطبيعة وفرضيات المكونات الحضارية، ونسبية الحقائق؛ أي من الذاكرة إلى الكشف، ولن يكون هذا في منظور الوعي إلا بتغير في أحوال الأجيال وانقطاعها عن ماضيها البعيد، وفي التحولات الكبرى التي تلحق مؤسسات العمران، من منظور أن حيثيات الواقع مرهونة بما يتصف به الإمكان، وليس بما يرتسم في النسق المغلق، الذي أملته الثقافة النمطية في جاهزية الاحتكام إلى ما هو مبجَّل، في حين تكون حيثية مصداق الواقع في نظر العقل الذي تبناه لاشعور [هبة] وفيما أشار إليه ابن خلدون على الدوام متبلورة مع التجلي والانكشاف،

مستسلمة لمسلمات طبيعة الحياة المتجددة، التي من شأنها أن تدفع بالواقع إلى حيثيات اعتبارية مستمدة من حيثيات توافق الاستدلال المعياري مع الإمكان المقرون بمعايشة الواقع، وهي قاعدة إجرائية تمكن الوعي الإنساني من التفاعل مع راهنه، الذي من شأنه أن يعترف بنسبية الاحتمالات والنتائج؛ إذ تبدو سمة الاعتبار في معيارية العقل العملي للواقع في أجلى بيان التغير والتبدل على نحو ما ذكره ابن خلدون في قوله: "إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق، والأقطار، والأزمنة، والدول"[33].

والحال هذه في نظر [هبة]، لم يعد هناك من بدٍّ سوى ترقب اليُمن في صورة الطائر العجيب المتوسل به – مضربًا للمثل - في شخصية المهدي المنتظر، وجعله شفيعًا له على الوضع المتردي، كما في هذه الصورة: سحبتني هبة فانطلقنا نواصل المسير، ورغم الكآبة التي كانت تطوق كل شيء، كنت أحس حرارة يدها تدغدغ نياط قلبي حبا وهياما، ظلت صامتة لمئات الأمتار...أعدت إلى ذاكرتي صورة الطائر العجيب، وتساءلت، هل يمكن أن نراه في هذا الموج من الحقد والظلم والتخلف؟ هل يمكن أن يخرج الجمال من القبح؟ ربما يكون الطائر العجيب مهدي هذا العصر، أو لعله مهدينا على الأقل، قلبت بصري في السماء كأنما أستعجل قدومه، لاشيء غير قطع من سحاب راحت تتنادى من كل صوب، لعلها تمطر مساء، كم كنا بحاجة إلى مطر يغسل كل شيء فينا، يتغلغل إلى أعماق أعماقنا[34].

تنبئ الصورة في المدونة الثقافية الواعية من [هبة] تَرَصُّدَ غريم الهوية في كل التفاصيل الشائبة، وترقُّب الفرج بكل الجزئيات المتفائلة، مستقطبة شعاع الأمل في الوعي الصحي، الذي من شأنه أن يؤدي إلى تآزر الصمود في مواجهة التطرف الطائفي، في محاولة منه لإعادة الوعي إلى الماضي الغابر بعواطف ممجوجة، وزرع الشتات بلغة لم يعد لأي قاموس أن يحتويها، كما سعى إلى أن يوطن في العقل قفرًا، وفي الثقافة فلاةً، وفي السلوك هيماءً من الانسياب السائل، وفي الوعي عراءً، حتى أصبح الإنسان تحت رحمة دَعْسِ عاصفةِ وحشيةِ مثالبِ التاريخ، ومع ذلك لم تذعن [هبة] للغة "مقتضى الحال"، ولا أن تتذلل لمطابقة العقل بالرعونة؛ نحن إذن أمام موقف يناقض الآخر، ويرفض فيه مناصبة العداء في خطَّيْ الاتجاهين الأفقي والعمودي، إيمانًا من [هبة] أن السبيل الوحيد يكمن في موقف رصِّ الصفوف حول الإجماع تحت آصرة الهوية؛ بموجب مسوغات المصير المشترك، واللغة الجامعة، والعقيدة الداعية إلى التأمل والتَّفقُّه من أولي الأباب.

وإذا كانت رؤية [هبة] بوصفها أيقونة الهوية الوطنية، ترفض ما تتبناه هذه الطوائف المتبددة؛ فلأنها ترى في ذلك أن غريزة الأهواء التي تحاول هذه الطوائف أن تفرضها على المجتمع قسرًا من شأنها أن تشتت الوعي، كما تحاول أن تحيي المطموس من النعرات، والعادات، والتقاليد، الزائفة، في مقابل أن تغتال الإبداع، والاستحداث، والمجاهرة بالعقل الراجح، والتباين بإعمال النظر، لذلك ظلت [هبة] تكابر مع حبيبها في طويتها وسَمْتِها،

وتمعن النظر في أمر مصير الذات بنظراتها الماحصة؛ كعيون المها بتأملاتِ بصيرةِ "زرقاء اليمامة"، تترصَّد ما يورق استبشارها من إمكانات البعث المرتقب لإعلاء هامة هويتها، هكذا كانت [هبة] تشرّع فسحة آمالها أمام كل طارق يشق ضروب الرؤيا، ويضيء أبجديات البراءة، كي تنمو ومضة الروح، وتشرق أنوار الانبعاث الكامنة في العلاقة التناظرية بين الطائر والبعث المضمخ برائحة الطهر، وتفسحُ المجال أمام تداعيات مطالب الأقاصي، التي كانت تحس بها في بعض الأحيان من المجهول، حينذاك كانت تستكين في حضن حبيبها، سرعان ما يتبدد التوجس بعَبَق المرتقب، الذي يحمل معه التمني الممزوج بيقين البعث الأكيد، في انتظار الخلاص، والخروج من دائرة الإكراه، والاغتراب، إلى ما هو مُتَيَمّنٍ به في الطائر؛ "فجأة تعالى فوق رأسينا تغريد عجيب، رفعنا أعيننا معا، كان طائرا من جنة، أخضر مع بياض خفيف يشوبه، كالمرج تساقطت عليه قزعات بيضاء من سحاب ربيعي، على رأسه تاج تتدلى ذؤابته عن يمين، ويمتد ذنبه منفتحا في كبرياء، كأنه مروحة للروح، يعزف سمفونية للأمل، أسرعت أحتضن هبة، أضمها إلى صدري، وفي كل المكان عطر وأنغام ولوحات لنور بهيج، وروح وريحان وفرح سماوي، قالت هبة كالهامسة وهي تضغطني إليها: - إنه هو. دون أن أحول بصري عنه، قلت هامسا أيضا. - نعم هو، إنه هو. رحنا نتابعه بفرح طفولي.[35]

تعكس صورة الطائر العجيب حضرة الأفق المتطلع - بسموه في التحليق - إلى البحث عن البغية؛ وأن يعلو الطائر إلى الأرقى، هو نفسه مطلب [هبة] الأمجد في أمنية البحث عن الجواب في المخلص من الأسمى؛ لتندمج مع حبيبها في مثلهما الأعلى، الذي هو وليد الأفق الكوني[36] حتى تكون مساعيهما نبراسًا للجيل الواعد، والتغاضي عن أخطاء هذه التيارات، مقابل البحث عن إنسانية الإنسان، **بقدْر الإمكان**، ضمن طبيعة **"الوجود الممكن"** في مظاهر الحياة المأمولة؛ ومعنى هذا أن المشاهدة بأنوار التجلي عند [هبة] هي فِراسَة في صورة الطائر العجيب؛ إذ كلما دعت صفات التفرُّس المتأملَ استجاب لها بنور العقل، ليعانق جوهر الأشياء، ويأخذ بها، وهو اتجاه تتخذه غريزة الرؤيا الكشفية لما هو أفضل. وبقدر ما يستطيع الناظر أن يستكشف المعنى الباطني، المحجوب عن الأنظار، الذي لا يشتمل على تبايُنٍ ضاربٍ، معتّم، مما يصعب على الحدس إدراكه، بقدر ما يستطيع المتلقي - أيضا - أن يلتحم مع معيار كشف الممكن للمغزى الكلي للوجود في هويته الأصيلة، التي بدت ملامح الأفول تكتسحها بفعل هذه الخلافات الطائفية الرعناء؛ الأمر الذي أنسى [هبة] وحبيبها غايتهما في كينونة هويتهما، وما انجر عن ذلك من تبعاتٍ، حملتهما على نسيان حبهما أيضا، "نسينا كل ما جئنا من أجله، نسينا حبنا وأحلامنا، نسينا الطائر العجيب، وأنَّى لهذا الطائر أن يظهر في جو موبوء بالأحقاد والفتن؟[37]، ومن هنا وجدت [هبة] منفذا للبحث عن الخلاص من هذا الابتلاء الذي حاصر العباد بأفكاره البالية، وعلى الرغم من ذلك استطاع الحبيبان أن يقاوما ما يحيط بهما من حنَق وامتعاض، بحثًا عن المعادل الوجداني لكيان الهوية المفعمة بالسمو والامتلاء في طويتها، إلى جانب كونها - أيضا - الملاذ الروحي لهما، بخاصة حين يتم إحباط الأنا في مواجهة انكسارها الناتج من أي عجز، أو تراجع عن المواجهة، لكن الذات هي وحدها التي تقاوم، وترفض أن تستسلم، فهي تمتلك وعيًا عميقًا بذاتها وبالعالم. ومن ثَمَّ، فالذات في صفات [هبة] مثلها مثل الصوفي يلج الأعمق، والأسمى، والأنبل، في محاولة

تخطيه عوالم الحس المتدنية، واعتلائه عوالم الأبدية المتعالية، حيث تنبجس حقائق الروح المثلى بكل معانيها وتجلياتها[38]، كما في حركات الطائر العجيب، الذي كان يرسم للمستقبل في الأفق فكرةَ الخلاص، قبل أن تتشفَّع [هبة] مع رفيقها إلى الراهب القطب بتزكية رجاء المطلوبية، فأمدهما بجواب يليق بطموحاتهما في البحث عن الحقيقة في أيقونة الطائر العجيب، الذي يصعب القبض عليه، أو رؤيته في كل حين إلا بعد عناء وجَهد، كونه يمكث في اللامكان، أين يربض سر الخلاص البشري، المحتجب بحجاب العزة، وحيث السر في لباب الماضي وتعمير المستقبل، لذلك كانت [هبة] على الدوام ترغِّب في حبيبها البحث عن هذا المخلص؛ أنَّى كان، وهو ما يوضحه سرد هذا الحوار بين هبة وحبيبها، حين قال لها: - فيم تفكرين؟ قبل أن تبرح النون رأس لساني أجابت: - **الطائر العجيب**. ضحكت حتى سمعت قهقهتي، كانت مصادفة جميلة، وسألتُ: - وأي سحر في الطائر العجيب يا هبة؟ - أريده أن يحلق فوقنا فجأة، ثم يحملنا بمخلبيه، وينطلق بنا إلى الأعلى، الأعلى، الأعلى، ثم يرمي بنا في جزيرة، ليس فيها إلا أنا وأنت. كنا قد وصلنا عند العين الفوارة التي احتلت مكان تمثال الأمير، رحت أتأمل الحركة حولها وقلت: - سأكون أنا السندباد وأنت السندبادة.[39]

هناك – إذن – مسعىً للبحث في مطلبين، **الأول** في صفوة الماضي بأمجاهده الطاهرة، بعيدًا عن ابتلاءات الطوائف والاتجاهات الفكرية المنحرفة، **والثاني** في استشراف المستقبل بالتعمير، وفي المقابل أيضا هناك الزمن المتوقف في المسلمات الجاثمة على رقاب الناس بقناعات ضالة، أصبحت تزرع ورم التقهقر والنكوص، وتحرك المياه الآسنة لإعماء البصيرة، وتنفذه عقول متحجرة في زمن يحتقن بالثبات، ويمتلئ بالسكونية والموت، وهناك زمن آخر منجذب إلى الحركية، والاستمرارية، والتدفق. **فالأول** تجسيد " للآني" الراكد، القاحل،"اليباب"، **والثاني** مؤشر على الثَّني، فهو منبثق، ومتفجر، ومفتوح على التغيرات والتحولات، ولذلك كان همّ [هبة] - كما هو همُّ كل أصيل غيور على هويته - استدعاء الزمن الآخر، زمن الامتلاء والحضور، ونشدان الآتي المحمل بنبض الحياة، والمشحون بالتنبؤ وفيض العطاء، والمتجدد على الدوام "وهذا يدل على أن عيني [هبة] مثبتتان دوما على الغد، وقد تجسدت ملامح هذه المابعدية الاستشرافية في أبعادها الأزلية في صورة **"الطائر"** بوصفه مؤشرًا دلاليًا على الزمن المرتقب في صورته الكلية[40]، التي استبان فيها الطائر العجيب في سرد العشق المقدنس، الذي يبدو فيه الأمل إشراقا، والحلم مشرئبا، والحبور غامرا لحظة انخطاف [هبة] رفقة حبيبها في حرارة دفء القلب؛ لبعث برهة الخلق والابتكار "رحنا نتابعه بفرح طفولي، غير مصدقين ما نرى، وظل الطائر يسمو إلى السماء باتجاه الشمال، دون أن يضعف وصول تغريده إلينا، وظللنا متعانقين، لتشهد النجوم في سطوعها الأول حبنا الأبدي[41].

ولم يتوقف الأمر عند طلب هبة الشفاعة بالرجاء من الراهب القطب فحسب، بل تعدى ذلك إلى الالتماس من النجوى في وجدان الضمير من الصورة الأيقونة بالدال القرائني في هذه الرموز: (عمار العاشق/ العميد/ القلم/ الذوق/ الفن) وهي الصور التي تسترسل أيقوناتها

في مسار السمو بالتضرع إلى العرفان داخل السرد؛ بما يضمن لها إرسال رسائل مشفَّرة ضد القهقرى في كل شيء يسعى إلى الإقدام والتقدم، وقد أبدع عزالدين جلاوجي بتسريب هذه الدلالات العرفانية في مضامين السرد؛ من قبيل التكافؤ بين ما هو مضيء في دلالات انبعاث هذه الصور، وما هو مدلهم في مساعي الطوائف والأحزاب، وبين هذه المساعي وتلك كان المستقبل في المحك من جراء الصراع بين العلاقة التعاقبية الاطرادية، والعلاقة الانفصالية الارتداعية؛ أي بين التواصل والانقطاع من خلال الصراع بين الضمير الواعد، المرجو منه، والضمير المرتكس، المنكفئ على كل ما هو وضيء ومشرق.

إن المتتبع لطموحات [هبة] في سرد العشق المقدنس يدرك أن النفاذ إلى جوهر الكون مفاده البحث في مظاهر الحقيقة، التي غيبها العقل المتحجر من هذه الفصائل الضالة، وكأن الوعي في منظور هذه الطوائف ينحصر في لزوم العقل المتصلِّب، الذي يدعو إلى الالتزام بالرواية المتواترة ومهادنة الماضي، ولا يقبل النقاش بالأناة والاتزان، وأنْ لا شيء يوجب الوعي على بعث الرؤية بالتجديد، أو الإبداع الخلاق الذي من شأنه أن يعكس صورة ما ينبغي أن يكون عليه الواقع، ولعل هذا هو ما شجع [هبة] التي كانت تعكس عقلية الضمير الجمعي النابض، الداعي إلى الخلق والابتكار؛ بصورة حَصيفة من حيث كونها تعتمد على المكاشفة في صوغها السردي مع حبيبها، فكانت نظرتها قاصِعَةً للعقلية المتبنية للسلف، وورؤيتها الناقدة للعقل المتواني، الذي أراد أن يفرض ظرفًا سابقا لا يترتب عليه الظرف الآني؛ لأن الاستدلال على ما كان في الماضي لا يعني بالضرورة هو نفسه الاستدلال على ما في الحاضر، انطلاقا من أن الواقع الممكن في منظور العقل العملي، الذي يبني أفكاره على التطلع، المحكوم بإعمال النظر، هو في حاجة إلى تجديد في كل آن وزمان، وأن كل واقع مسبوقٌ بغيره، شريطة أن يكون السابق علة للاحق؛ إذ كل شيء باقٍ ببقاء علله، ويتشكل بشكل جديد، وهو ما يقتضي وجوبه.[42] ومن هنا جاءت مواجهة [هبة] للعقلية المتحجرة كمحاولة منها لبعث الأمل بعد جثوم اليأس، والسَّلْوَة، ونشر الوعي فيما ينبغي أن يكون عليه الواقع، والبحث عن الحقيقة للوجود الأسمى، فاستطاعت بذلك أن تعزز فرضية الرغبة في حل مسائلَ عالقةٍ درج عليها الناس، وفي تسوية مواضيع مُنثلمة، ونكثِ أفكارٍ زائغةٍ، انشدَّت أذهان الناس إليها حقبة من الزمن.

ولعل في ربط الفن بلسان ضمير "الدال القرائني" في هذه الأيقونات: (عمار العاشق/ العميد/ القلم/ الذوق/ الفن) ما يشير إلى رغبة سرد رواية العشق المقدنس، في ربط الصلة بينها وبين الحقيقة، وبينها وبين ما تكتمل به العلاقة العرفانية؛ لتأسيس علاقة الحب الأسمى، والوعي الأمجد، والمطلب الأجدى، وعن طريق هذه العلاقة يتولد عالم الحلم المشرئب، وينبعث الزمن الذي يسكننا، ويشكل مستقبلنا بطريقة مختلفة جذريا عن الزمن الآخر المُتَنائي، الذي لا يقبل مسوغات التجديد، لذلك واجهت هبة هذه الأفكار الفجَّة، المحمولة بأخبار التقاليد المرويَّة، وأسانيد الأعراف المتواترة من وجهة نظر العلوم النقلية السمعية، المستمدة من زمن القهقرى، فاستعاضت عن هذا التخلف بالمعرفة العرفانية الإدراكية، لتنشيط القدرات الذهنية، التي توسمتها في تحليقات أيقونة الطائر العجيب، وفي رمزية الفنان عمَّار العاشق، والعميد، ونِشدان الذوق الفني؛ بوجهة نظر العلوم العقلية العملية، والمعارف الإنسانية، وهي الصورة التي تسكن [هبة] في دواخلها، بوصفه رمزا للهوية الواعدة،

وتلتمسها على لسان حبيبها، رمز الذات الجمعية؛ تجمعهما علاقة الحب الصادق؛ بما نقش في ضميريهما من وَسْم سَرمدية الهوية، والمآثر الأصيلة؛ بما ساد في إبَّان عصور الازدهار، حيث كان المعيار الخلقي يكوّن بعرفانيته معرفة الحق، ومصداقًا له، وذلك من خلال الوعي الحسي والعقلي، والمعرفة اللدنية من القلب والبصيرة، التي تحدد فضائل الإنسانية في وجودها الأخلاقي والاجتماعي، والثقافي، والديني، من منظور أن معرفة كمال الوعي والتحلي به؛ إنما تنطلق من جوهر وجود الإنسان في حركته الدائبة، التي تسعى إلى معرفة النفس عبر صفة العقل.

وقياسًا إلى هذا فالمطلب الإنساني في رواية العشق المقدنس، مدار شوق إلى الارتفاع من عالم الأظِلَّة في الخلق إلى معرفة باطن الحق، والاندماج فيه، والفناء في وحدانيته، هي ذي الأفكار التي تناولها العقل الناضج في تراثنا على غير سمت الاتجاهات الطائفية التي حاولت أن ترسخ فكرا واهنًا.

لقد كان هذا أحد أهم مبررات مطالب سرد العشق المقدنس في شخصيتها الفاعلة [هبة]، وفي الفضاء المتخيل الذي أبدع فيه عزدالدين جلاوجي، المستمد من وعيه اليانع، وبسرده المُبين، وبرسمه الصورة التي كان عليها تراثنا الأثيل، وعصرنا الذهبي المَهيب، الماثل في أيقونات: (عمار العاشق/ العميد/ القلم/ الذوق/ الفن)؛ فأنَّى نحن من هذا في نظر رواية العشق المقدنس التي صورت لنا رؤية دالة، وملامح مُفصِحة عن الفكر المضمحل، الذي انتاب وعينا من تبعات الطوائف الغاوية، بنكبات أيامها الخانقة، كل ذلك وغيره كان محل أنظار الضمير الجمعي في مسمى [السارد]، حبيب [هبة]، وهو يذكرها بأمجاد الزمن الأصيل، والإفادة من سناء كعبه العالي: "تذكرت عمار العاشق، لمعتْ في ذهني لوحاته البديعة، تذكرت هديته الثمينة، صرخت في أعماقي: إنها المنقذ، سأذكّر هبة بها، حتما ستسعد كثيرا، وستسرع إلى تعليقها، ستقضي الوقت الطويل تتأملها وتعدل من وضعيتها،وتنقلها من مكان إلى آخر، كأن بينهما حبا عذريًا أبديًا، إنها وحدها قارب النجاة[43].

كانت مثالية [هبة] في سرد العشق المقدنس نابعة من مملكة الأفكار، وإدراك الجانب المعرفي، بوصفهما قيمتين ثقافيتين ترفعان المرء إلى التعامل مع حسن الخلق، قبل بلوغ الوعي رُشدَه، بحسب ما توجبه الأشياء المعرفية، والعلاقات الاجتماعية، والثقافية، والدينية الراشدة، من منطلق هذا النوع من الوعي الثقافي يعطي للذات تحققها الإنساني، والجمالي. ومن هنا تكون نسبة جدوى الحكم على الشيء الوخيم من نفعه، ماثلة في النظام المعرفي، بخاصة في العلوم الإنسانية التي تقود المرء إلى وعي التنوير، وتدعوه إلى الامتثال بتغير السنن الكونية، والعمل بها واقعيا، على غرار ما بدا من تقدير الجمال الفني، المقترن بقوته العاطفية، وبما تحمله رمزية إبداعات عمَّار العاشق من خلال وصف السارد: "ابتسم الدليل وهو يقول: - ياعمار، تكاد تغرق الجميع في كرمك. والتفت إلينا وواصل: - إنه عمار العاشق، أكرم من عرفت... دفعتنا أنامل ابتسامته إلى أن ندخل،...، واجهنا معرضٌ ضخم لألواح بديعة شكلها عمار العاشق على كل ما يمكن أن يرسم فوقه، حجارة ملساء، وألواح

وجلود من كل الأشكال، وقصب يراع، فَغَرت هبة فاها وهي تقول: - يا إلهي! ماهذا؟ وأسرع الدليل يجيب: عمارُ عاشق ولهان، مبدع فنان، يشكل بالخط لوحات بارعة، ويعزف على العود مقاطع ساحرة، ما أروع الجلوس إليه"[44].

يصور لنا سرد الرواية أن عمَّار العاشق، والعميد، كانا موجودين في بداية الدولة الرستمية، ثم ماتا شهيدين، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وهو ما تتضمنه الصور التي ترسل دلالاتها من اللامقول في السرد على أن المعرفة والفن هما من قبيل الحياة الموصَلة بين الأجيال، وأنهما ماثلان في الأزمان، وسيبقيان كذلك إلى الأبد، وهو ما عدَّه السرد خَلاصا للمستقبل، بالخروج من ظرف مبغض ومستكره إلى ظرف مشتهى ومقصود، وأن ذلك لن يتحقق إلا عن طريق الفن والعلم، والجمال، والمعرفة، لذلك رسم السرد صورتي عمَّار العاشق والعميد بعُمْر كينونة وجود الدولة الرستمية، وهو العمر الافتراضي لزوال ما تمليه سنن الكون، على نحو ما وقع من وهن لهذه الدولة وانهيارها، في رسالة مشفرة إلى أن الفن في رمز [عمار العاشق]، والمعرفة في رمزية [العميد] عاشا مرحلة دائرة الذوق الفني والثقافي عبر مسيرة زمن الدولة الرستمية، وكأن الصورة تعكس ما يجري عليه العمر الإنساني، وتستمد مقوماتها من منطق التقدم الحضاري على مدار وجود الإنسان المجدي بأفكاره، في حين تعيش الأفكار الميتة في زمانها الطبيعي من دون أدنى اعتبار.

وإذا كان الفن والعلم حاضرين في واعية [هبة] وسيبقيان كذلك في ناصية كل هوية من منظور **"كونية الاتصال"**، فإن الأهمية البالغة التي تنادي بها مع حبيبها تحدد القيمة المعيارية لوجدانها في التفاعل مع تزاوج الثقافات، وتمنح المقدرة على إشعاع مكتسباتها المعرفية من منظور سنن التنامي الحضاري، وهو ما أضفى على الوعي صبوة الإبداع بتنوع مضامينه، وتوسع رؤاه، وهذا كله مؤشر متمم لتنوع المكاسب المعرفية المستجدة؛ الأمر الذي أتاح لهذه المعارف تناول موضوعات أكثر انسجامًا مع العصر، وأكثر ملاءمة للتطور الحضاري، كما أسهم في تحرر العقول من أسر المعاني القديمة المستهلكة؛ لذلك سعت [هبة] في نهاية الرواية إلى رسم صورة العميد المسئول عن مكتبة المعصومة - المدينة الواعدة – وهو يزمع أمره على إخفاء الكتب، داخل صخرة، "مساء ذاك اليوم، كان يقوم في رحم الصخرة، ونقف نحن الثلاثة خارجها، نسلمه ما يطلب من كتب، كان يتسلمها منا بأناة، ثم يضعها برهبة، كأنما ينقل شيئا مقدسا، كأنما يضع جثة نبي في قبره الأبدي، وما كاد الكنز يتوارى في مكمنه الآمن، حتى مد يده إلى قطعة جلد كبيرة كتب عليها" مكتبة المعصومة " غطى بها الكتب"[45].

إن نسقا متواترا من الأحداث المتسارعة تدفع بمكاشفة [هبة] تأملات متطلعة، كانت قد ترعرعت في مخيلتها، ولذلك نجدها – مع حبيبها – ترمي إلى تعهدٍ بصون الذاكرة بما يمت بصلة إلى البرهان الوثائقي، تفاديا للتعليق الطوعي بعدم التصديق، على حد تعبير كولردج[46]، حين يوجه المؤرخون خطابهم إلى قراء يَقعون في الشك والارتياب، لا يتوقعون منهم السرد فحسب، ولكن إثبات صحة سردهم.

وفي ضوء مساعي سرديات [هبة] مع حبيبها، بوصفه الضمير الجمعي النابض، يتحدد الموقف المعادي للآخر، المستبد بأفكاره البالية الذي يرفض التغيير، في مقابل منح الواقع ما يليق به من مطالب تفرضها المستجدات؛ وهو ما دفع ضمير [هبة] إلى المطالبة

ببناء القيم الثقافية المرهونة بالتحول وفق ترتيبات خاضعة بالضرورة لنتاج الثقافة الجديدة، أو داخل صناعة الثقافة العالمية فى تأثيرها الفعال على الثقافة المحلية. وفى هذه الحال، فإن [هبة] معنية فى سردها بالكشف عن مدى تنامي الهوية؛ بالنظر إلى المؤثرات المتنوعة من منظورها المعرفي، الذي يدل على معنى الذات المتواصلة.

ولعل موقف [هبة] في رواية العشق المقدنس لا يختلف عن موقف شخصيات روايات عزالدين جلاوجي، بخاصة شخصية [شامخة] في رواية "عناق الأفاعي"، التي كان فيها السرد متوجها إلى البحث عن الصورة المتناقضة في الحياة بين الفردوس المأمول، والجحيم الماثل في الوجه الآخر للحقيقة، انطلاقا من مبدأ الهوية المتغايرة الذي لا يفصل بين الثنائيات مثل: **الصورة/ الهوية، الوجود/ الماهية، الذات/ الموضوع**، بوصفها قيمًا تحمل مركب الكينونة الباطنية لحقيقة الذات. انطلاقا من أن الذات لا تدرك حقيقتها إلا بنقيضها، ونقيضها هو الوجه الآخر لذاتها، ولذلك يقوم مبدأ الهوية بـ [اللانفصال]، وحينئذ يكون " الشكل الصحيح للوجود ليس في المعنى منفصلا عن الصورة، أو في الصورة منفصلة عن المعنى، وإنما هو مركب المعنى والصورة، ووحدتهما[47]، وتبدو هذه الفكرة أكثر تأصيلا عند ابن عربي، الذي ينمّي مقولة **"اللامتناهي"**، بوصفها **"الاسم الآخر لمقولة وحدة الوجود"**، وهي فكرة فلسفية يبني عليها ابن عربي تصوره حول وحدة الوجود التي تعني تلاحم المتضادات في كيان موحد، ونحن نُلفي انعكاس ذلك على الفواعل السردية لرواية عناق الأفاعي بوصفها كونًا قائما بذاته، حيث يشكل الإنسان جزءًا من هذا الكون بمسعى الانتقال من القوة إلى الفعل، ومن الغيبة إلى المشهد.[48]

تبدو الاختلافات بين مساعي [هبة] والأفكار الحزبية الطائفية، هي اختلافات ثقافية قبل أن تكون اختلافات أيديولوجية من قيادات هذه الطوائف الذين لفُّوا أفكارهم بالروايات المتواترة، ومَوْضَعوا ثقافاتهم داخل خطاب كان خليطا من التمَحُّلات الكلامية، وفريسة للعبث بأفكار لا تستند إلى براهين دينية، في وقت أن الخطاب الديني أحوج ما يكون لتقبل رأي الآخر، ونشر عقيدة الإيمان في نفوس الناس بسهولة ويسر، وبما يناسب جميع العقول والأفهام؛ وفي ضوء ذلك لم تعد العقيدة في ظل هذه التكتلات الحزبية، منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا، تبعث على الاطمئنان، كون الداعين إليها تغلب عليهم نزوات لا تستقر على حال، سواء من ناحية عدم الاستقرار الفكري، أو من ناحية التفاعل السلوكي الذي أسهم – هو الآخر - في تصدعات الوعي الذي طال استقرار الهوية قبل العقول، ولم تعد أفكار ريادات الأحزاب الداعية إلى توحيد العقدية تنويرية، بقدر ما كانت – وما زالت – تجهمية، ومطالبها ملغزة، وكثيرة التعقيد، وهو ما عقد من الصراعات الشرسة بين الفرق والملل والنحل على غرار ما بدا لـ [هبة] وحبيبها، وبينما هما في عشهما الدافئ، إذ بأحد أحد القادمين من طائفة الفرق يباغتهما، وبعد أن استقبلاه أفصح يقول: - إن الوهابيين النواصب قد خرجوا في كل قوتهم لملاقاة الشيعة الروافض، شعارهم الأكبر" واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف"، وحتما سيمرون من هذا المكان، كل من رفض الخروج معهم قتلوه، نجوت أنا من

مطاردتهم، وأصيب رفيقي برمية سهم، تحداها حتى وصل إلى هذا المكان، تجرع ماء، تمدد، وفاضت روحه إلى خالقها، لا أريد شيئا، غير طعام وماء أستعين بهما على حمل نفسي ورفيقي، سأدفنه بعيدا في عمق الوادي[49].

وما أن مر وقت قصير حتى بدأ الصراع على أشده، وتناحرت الطوائف في القتال، حيث الصراع الدائر بينها على الفهم الخاطئ للتعاليم الشرعية من وجهة المنظور؛ في مقابل تبنيها الشرع من جهة المسطور، فما كان من أيقونة الهوية في مسمى [هبة] إلا أن تراقب الحدث، وتترصد ما يجري في منعطف الوادي، في إشارة إلى الانعطاف عن الماضي السحيق، الغابر، والتوجه إلى التبصر في المستقبل من خلال القرين الدلالي في صعود [هبة] وحبيبها إلى الربوة، وهما يعزفان على الناي، حينها ظهر الطائر العجيب بوصفه خلاصًا، بعد أن مالت شمس الغروب، لتشرق على حياة المنشآت الإنسانية، والمساعي المتحضرة التي توجبها العقلانية كالتقنيات التكنولوجية، التي أشار إليها السرد في مواضع كثيرة، والإفادة من الفن والعلم، بعدما أضعنا ذلك بفقد التدبر، هذا ما يصوره منظور [هبة/الهوية] لمستقبلها حين تنفست الصعداء مع التوجع، حين قالت على لسان [السارد/ الضمير الجمعي الحي]: "مالت الشمس إلى الغروب تسعى للهروب من هذا المشهد الفظيع، كانت الأرض تئن، وبدت السماء شاحبة عليلة، وقد تسربلت بالغبار، وراحت الأصوات تخفت شيئا فشيئا وقد اختطف الموت الجميع، ...، فجأة تعالى فوق رأسينا تغريد عجيب، رفعنا أعيننا معا، كان طائرا من جنة، أخضر مع بياض خفيف يشوبه، كالمرج تساقطت عليه قزعات بيضاء من سحاب ربيعي، على رأسه تاج تتدلى ذؤابته عن يمين، ويمتد ذنبه منفتحا في كبرياء، كأنه مروحة للروح، يعزف سمفونية للأمل، أسرعت أحتضن هبة، أضمها إلى صدري، وفي كل المكان عطر وأنغام ولوحات لنور بهيج، وروح وريحان وفرح سماوي، قالت هبة كالهامسة وهي تضغطني إليها: - إنه هو. دون أن أحول بصري عنه، قلت هامسا أيضا. - نعم هو، إنه هو. رحنا نتابعه بفرح طفولي، غير مصدقين ما نرى، وظل الطائر يسمو إلى السماء باتجاه الشمال، دون أن يضعف وصول تغريده إلينا، وظللنا متعانقين، لتشهد النجوم في سطوعها الأول حبنا الأبدي[50].

وبين ألف تاهرت ويائها، في أيهما أصح: [تاهرت أو تيهرت]، والواد السحيق، والربوة المرتفعة بوقارها وبهائها، يحلق الطائر مرتفعا في السماء، يسمو إلى الأعلى، إلى النجمات في ضيائها، إلى البدر في عليائه، محاولا الانعتاق من ماض غائر لا يسكنه إلا "خواء مَرْجوم"، ثقيل بالفتن، ودروب كئيبة، وشِعاب تشعَّبت فيها المذاهب الطائفية، وهو الطائر الذي تشرئب إليه الأعناق، وتتعلق به الآمال، وبترقبه تتقلب الأبصار باحثة عنه، وترتفع معه للعبور إلى الحلم المأمول، الذي يرسم للحبيبين طريق السعادة فيما يحقق لهما من بغية، لذلك استعار عزالدين جلاوجي كل ما يشير إلى التخلص من ربقة الماضي، الذي رمز له بالواد السحيق، ويأسر طموح هبة وحبيبها، فيما يحيلان إليه من هوية وطنية، قي مسمى أيقونة الطائر العجيب/ الحصان بجناحين غريبين.

هكذا، يبدو المشهد في آخر السرد باعثًا على بريق أمل فى توق الهوية إلى الوجود الأسمى؛ والحال هذه، لا سبيل إلى الحل إلا بضرورة الإقدام، والتحليق، وتدارك الأمر، بخطى راسخة، والاحتكام إلى التؤدة والأناة، وهي الدعائم التي يمكن أن نَتَّقي بها مستقبل

هويتنا، وهذا ما تتبصره [هبة] في الطائر العجيب، المخلِّص، وهو يرفرف، ولكنه يحلق في اتجاه الأعلى، وفي الاستواء نحو الشمال، أي في اتجاه طلب السمو للحضارة المتفوقة، المفعمة بالإسداء، وبالجمال، والسمو، والعظمة، والرفعة، وبالإفادة – بخاصة - من جهة الشمال في معنى الاحتكاك بالحضارة الغربية، بوصفها حضارة المعرفة، كما عبر عنها السرد في الصحون الشبحية، المعبرة عن الخيال العلمي، "وحتى لعبة الطائرات الشبحية القذرة التي يلعبها معنا النصارى الملاعين سنتحداها"[51]؛ بالمواجهة التي يطمح إليها الضمير الجمعي النابض من خلال امتلاك القدرة على دعائم التطور الحضاري، والوسائل العلمية الجديدة، لبناء الواقع المأمول، المشرئب إلى لغة قادرة على مواجهة تحديات الغرب الذي أفرغ ما في جعبته لمناصبة العداء للأمة العربية الإسلامية، باختلاق الفتن، وإرسال افتراءاته عبر كل السبل إلى العالم الثالث، مما يعني أن العالم اليوم يتجه نحو التواصل عن بعد بالتقنيات التكنولوجية، "لم يمض بنا الوقت إلا قليلا حتى حلقت فوق رؤوسنا طائرات هليكوبتر"[52]

يحلق بنا السرد بين زمنين، الأول: ماض سحيق، مليئ بالضغائن، لا يهمه إلا بما فرضته هذه الفئات الضالة على المجتمع من تدين مسطور عبر الاعتناء بالمظاهر، دون المعاملات الدينية، وهو ما نلمسه في حالات وتحولات الشخصيات المناهضة لكل سبل التطور الذي عبر عنه **الزمن الثاني** الواعد، بوصفها هدفًا في ناصية [هبة] بما تحمله من دلالات عميقة، تحيلك إلى مفهوم الهوية، بوصفها معطىً حضاريًا موعودًا؛ من قبل الأجيال المرجو منها إنفاذ الفعل، وتحقيق المكانة الإنسانية اللائقة، والبناء الحضاري المشترك،

وفي ضوء ذلك، يمكن أن نعدَّ هذه الرواية نقدًا للعقل العربي، بخاصة في الجانب السياسي، منذ بدء الخلافات الطائشة بعد نهاية دولة الخلفاء الراشدين إلى يومنا هذا، ومن ثم فإن الرواية سياسية بكل المعايير التي تدفع بالمتلقي إلى تجنب اجترار الماضي الآسن، واحتضان المنظور الأمثل والأجدى، والاعتناء بالكمال في المنظور الشرعي، والمرموق العقلي بالتدبر؛ سعيا إلى استشراف المستقبل الواعد.

الهوامش:

[1] المقدمة، طبعة لجنة البيان العربي، 1965، 504.
[2] أبو يعرب المرزوقي، إصلاح العقل في الفلسفة العربية [من واقعية أرسطو وأفلاطون إلى اسمية ابن تيمية وابن خلدون] مركز دراسة الوحدة العربية، ط 1، 1994، ص 239، 240.
[3] عزالدين جلاوجي، العشق المقدنس، منشورات المنتهى، 2016، ص 104،103.
[4] المصدر السابق ص 136.
[5] رشيد رضا، عن كتاب أوهام الهوية، داريوش شايغان، ص 72
[6] العشق المقدنس، 136

[7] ينظر، عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد، ومصارع الاستعباد، وزارة الثقافة والفنون والتراث – الدوحة، 2011، ص33.
[8] العشق المقدنس، ص 137
[9] العشق المقدنس، ص 117، 118.
[10] ينظر، إكرام عدنني، سوسيولوجيا الدين والسياسة عند ماكس فيبر، منتدى المعارف، 2013، ص144.
[11] العشق المقدنس، ص 62
[12] العشق المقدنس، ص 63
[13] ينظر، داريوش شايغان، أوهام الهوية، ترجمة، محمد علي مقلَّد، دار الساقي، 2003، ص72
[14] ينظر، عبد القادر فيدوح، تأويل المتخيل، دار صفحات، سوريا، 2018، ص73.
[15] العشق المقدنس، ص 138
[16] ينظر، عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تحقيق وتقديم د. ممدوح حقي، بيروت 1966. ص 35/34، ينظر أيضا أحمد برقاوي، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل للأمير عبد القادر الجزائري، موقع معابر /http://www.maaber.org
[17] العشق المقدنس، ص 99.
[18] ينظر، جوديت بتلر، الذات تصف نفسها، مقدمة الترجمة فلاح رحيم، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2014، ص 6
[19] ينظر، عبد القادر فيدوح، نظرية التأويل في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الأوائل، سوريا، 2005، ص 42 وما بعدها
[20] العشق المقدنس، ص 112، 113.
[21] نفسه، ص 114
[22] ينظر، سيرجي قره – مورزا، التلاعب بالوعي، ترجمة، عياد عيد، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2012، ص 39.
[23] ينظر، بول ريكور، الزمان والسرد، الحبكة والسرد التاريخي، ترجمة، سعيد الغانمي، وفلاح رحيم، ج1، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2006، ص294.
[24] العشق المقدنس، ص 81،80
[25] ينظر، بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة، جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2009، ص718
[26] ينظر، لطفي عبد البديع، فلسفة المجاز، بين البلاغة العربية والفكر الحديث، النادي الأدبي الثقافي، المملكة العربية السعودية، ط 2، 1986، ص 235
[27] العشق المقدنس، ص 7
[28] فريدريك نيتشه، محاسن التاريخ ومساوئه، مقدمة المترجم، رشيد بوطيب، منتدى العلاقات العربية والدولية، الدوحة، قطر 2019، ص7
[29] ينظر، فيليب هامون، في الوصفي، تعريب سعاد التريكي، بيت الحكمة، تونس، 2003، ص212
[30] العشق المقدنس، ص 8/7
[31] العشق المقدنس، ص 85
[32] العشق المقدنس، ص 169، 170.
[33] ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص 321.
[34] نفسه، ص 119، 120.
[35] العشق المقدنس، ص 172، 173
[36] ينظر، عبد القادر فيدوح، معارج المعنى، ص 10

[37] العشق المقدنس، ص 127
[38] ينظر، عبد القادر فيدوح، معارج المعنى، 121، 122
[39] العشق المقدنس، ص 120.
[40] ينظر، عبد القادر فيدوح، معارج المعنى، ص 68
[41] العشق المقدنس، ص 172، 173
[42] ينظر، عبد القادر فيدوح، التجربة الجمالية في الفكر العربي، دار صفحات، سوريا، 2014، ص 177
[43] العشق المقدنس، ص 137
[44] العشق المقدنس، ص 21،20.
[45] نفسه، ص 162
[46] ينظر، بول ريكور، الزمان والسرد، ترجمة، سعيد الغانمي، وفلاح رحيم، ج1، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2006، ص 277
[47] أدونيس، الثابت والمتحول – الأصول - دار العودة، بيروت، ص 98.
[48] ينظر، عبد القادر فيدوح، تسريد الذاكرة - حفر تأويلي في ثلاثية "عز الدين جلاوجي"، كتاب قيد النشر، وينظر أيضا، عبد القادر فيدوح، معارج المعنى، ص 123،122.
[49] العشق المقدنس، ص 172،171.
[50] العشق المقدنس، 172، 173.
[51] نفسه، ص 115.
[52] نفسه، ص 99.

MAQAMAT

International scientific periodical journal

مجلة مقامات مجلة دورية جزائرية علمية دولية محكمة سداسية، تشرف عليها هيئة علمية من الباحثين ذوي الخبرة والكفاءة من داخل وخارج الوطن، وبمتابعة من هيئة تحكيم ذات كفاءة تشكل دوريا لتقييم البحوث والدراسات .

وهي تصدر عن معهد الآداب واللغات بالمركز الجامعي بآفلو بدولة الجزائر، كما أن المجلة متخصصة في الدراسات والبحوث العلمية الأكاديمية في ميدان العلوم الإنسانية، والاجتماعية، والإسلامية، والأدب، واللغات، وميدان الفنونوالحضارة .

تنشرالمجلة كل عمُل أصيل، وليس جزءا من كتاب منشور،وغير مقتبس، وبأن يكون البحث المذكور لم يسبق نشره، أو مقدمًا للنشر إلى جهة أخرى.

تهدف المجلة إلى نشر البحوث العلمية الأصيلة من طرفالباحثين والأساتذة وطلبة الدكتوراه وذلك بهدف تعميم نشرالمعرفة والاطلاع على البحوث الجديدة والجادة وربط التواصلبين الباحثين، كما تهدف إلى إتاحة الاطلاع على البحوث والدراسات لأكبر عدد ممكن من الباحثين تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغة العربية والفرنسية والإنجليزية على أن يتسم البحث العلمي بالجودة والأصالة والأمانة العلمية في نقل المعلومات وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها ، ووفق الشروط المنصوص عليها أول العدد.

للمراسلة والتواصل:

البريد الالكتروني: cua.makam@gmail.com

الهاتف: +213699112862